لقد أزف الوقت الذي ينبغي أن نصل فيه مسكننا، لأن الساعة تسرع. لذا نسأل القواص أن يدلّنا على أقصر طريق. كيف يمكنهم معرفة الطريق؟ فالطرقات هي عينها: زوايا، ومنعرجات، وخطوط مستقيمة، وفي الأطراف حيطان عارية.

هودج نساء

الحياة هي حميمة في الشرق، والشبابيك مفتوحة في الحيطان الداخلية، وخلف باب الدخول، نلقى جداراً يمنع السابلة، فيما إذا كان الباب مفتوحاً، من رؤية ما يجري داخل البيت.

حين نصل الجماعة (الدير)، نلقى المونسنيور ألتماير يتقبل عبارات الوّد من جميع الذين يشاهدونه مغادراً الموصل. نجلس على المائدة للغداء، فيقدمون لنا حلويات المنّ.

إنها المرة الأولى التي آكل منه، ويبدو لي مذاقه لذيذاً حقاً. الحلوى مزيج من المنّ واللوز (الجوز) والحليب والطحين والسكر والعسل، تسحق بشكل قرص صغير[٨٦]. وبعد الأكل، نجتمع كالعادة في الديوان، حيث نتجاذب أطراف الحديث مع المونسنيور منتظرين مغادرته. يأتي رئيس الأساقفة الأرمني (السرياني)[٨٧]، المونسنيور

= لكل ما يشدّك الى الحياة. إنه نوم اليقظة، مشحون بأحلام لذيذة، وهو خلوّ من الهموم مهما كانت المشاكل أو بوسعها أن تحصل. وليس ثمّة شرطي واحد لايمارس (الكيف) مرة واحدة في النهار على الأقل، وغالباً ما يكون ذلك خلال أربع أو خمس ساعات (الرحالة). وأنظر الهامش ١٩٨، وهو يكتب الكلمة هكذا: Keip.

(٨٦) (منّ السماء) نوع من المن والسكّر وبياض البيض، يغدو أبيض بفعل الحرارة، ويضاف إليه الفستق عادة، والجوز واللوز أحياناً، ويغلّف بالطحين منعا للإلتصاق إذ يصنع على شكل أقراص صغيرة. وهو يصنع في الموصل بأفران خاصة حتى يومنا هذا، ويعتبر من أجود الأنواع.

(٨٧) مرة أخرى يخطيء بنديه فيقول (الأرمني) بدلاً من السرياني. والمطران بهنام بني رئيس أساقفة السريان الكاثوليك على الموصل منذ عام ١٨٦٢ ثم بطريرك إنطاكية على السريان الكاثوليك سنة ١٨٩٢.

(المطران) بهنام بني لرؤية زميله متمنياً لو يرافقه. إنه شخص ذكي جداً وذو فضل كبير.

أخيراً تأزف ساعة الرحيل. إنه موكب حقيقي: ستة قواصين بأزيائهم الرسمية يفتتحون المسيرة، يليهم رئيسا الأساقفة، نتبعهما وسط الرهبان، مابين الأب دي سيكونزاك والأب هنري اللذين نعطيهما موعداً قريباً في بغداد. وخلفنا طلبة المدارس. بأقل من ربع ساعة نصل ضفة النهر حيث القوارب، في الجنوب الشرقي من الموصل، خارج الأسوار، في ضاحية صغيرة.

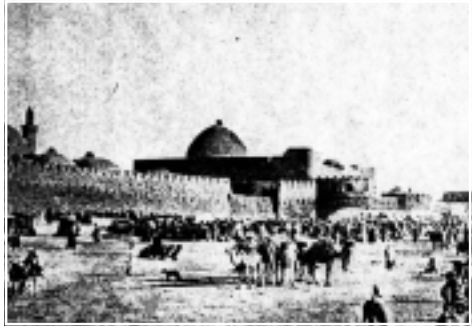

سوق الغنم - الموصل

جميع الحقائب مجموعة في قارب على حدة تحمله مائتا قربة، إضافة الى التجهيزات والخدم والجندرمة، وعلى القارب الآخر المحمول فوق مائتين وعشرين قربة، خيمة منصوبة ومقسومة الى شقتين، للراهبات وللآباء.

لايوجد خشب في الموصل، إذ لاتنمو أية شجرة. والريف بأسره يبدو، ظهر صحراء جرداء. لذا فإن الخشب الذي تشيّد به هذه القوارب يصل من مناطق واقعة قرب دياربكر وسعرت وبتليس. تلقى الأشجار المقتطعة في دجلة، فتصل الموصل حيث تباع بسعر جيد، وإذ تصل بغداد تتضاعف قيمتها. تشطر سيقان الأشجار الى قسمين، وتشدّ بواسطة أربطة وجذوع، وتوضع تحتها القرب المنفوخة بالهواء. تستأجر القرب من قبل أفراد يقومون بتأجيرها لقاء خمسة قروش للواحدة.

كأننا في الوداع الأخير. يسيّر القاربين كلكان، يمضيان يتؤدي في لإتجاه المطلوب. نصعد الى سطح التلغراف الأوروبي الذي يهيمن على النهر وعلى قسم من المدينة، فنشاهد الكلكين يبتعدان. أزائنا قرية النبي يونس، والى اليسار جسر الموصل.

سكان (بونه) بفضل حمايتهم
إبتنوا جسراً على بعد فرسخين من (ساوون)

جنود قصابون

حين مازح بيرون أهالي بورغونين، لم يكن يفكر بأن رباعيته هذه بوسعها أن تنطبق على الموصليين[٨٨] لقد كان من المقرر أن يشيّد جسر على دجلة في الموصل. فأختير الموقع الأشدّ ضيقاً، فإن عرض النهر هو مائة وثمانية وستون متراً في هذا الموضع، ولكنهم لم يفكروا بأن هذا الموضع هو كذلك الأشد عمقاً. ولأنه كان لابد من إقامة جسر، راح الأهالي يطالبون به قلباً وقالباً، ولم يكونوا يستطيعون بناءه على النهر. لذا نراهم قد بنوه الى جانب النهر، إذ إنه سينفع، كما قيل لهم، حين يفيض النهر. وبقي جسر القوارب، يضطرون على العبور بالزوارق. وبما أن الأهالي يجدون من السهولة أن يبلغوا الضفة مباشرة، وإن الفيضان يتجاوز السدّ أحياناً كثيرة، كان الجسر غير صالح البتة.

خلف البيت، توجد مساحة كبيرة فارغة تمتد حتى الأسوار، كأنها منطقة عسكرية. في هذه الفسحة يجري دفن الموتى دونما إهتمام بنظامها، إنما بإتجاه مكة دائماً. ولا شيء أكثر بساطة من هذه المقبرة، فهي ساحة عامة، تستعمل قبورها عادة كمصطبات، إذ تداس دون أي إعتبار يمنع ذلك، بحيث تدفع الأوروبيين أيضاً الى

(٨٨) الشاعر الفرنسي Biron يمازح أهالي مقاطعة Bourgogne الواقعة الى الشرق من فرنسا ومركزها ديجون. وموقع الجسر الحجرى الذي يتحدث عنه بنديه قرب جسر القوارب الذي ظل قائماً في الموصل حتى تشييد الجسر الحديدي مكانه عام ١٩٣١.

قبور وجامع - الموصل

القيام بمثل ذلك. يلعب الأطفال حول القبور، وتستريح قوافل جمال كبيرة في وسطها، بل إنهم يتركون الحيوانات تقضم الأعشاب الحقيرة التي تنبت في زوايا الصخور. ويدفن المسلمون موتاهم بسرعة، بعد الوفاة بساعتين، حتى لو كانت الوفاة غير أكيدة. ينقل الميت الى القبر بحيث قد يحدث أن يدفن شخص ما حيّا، إذ يعتقد المسلمون أن الجسد يتألم طالما لايدفن[٨٩].

لقد إختفى القاربان. لذا نعود ونحن ندخنّ الشيبوك، ونتحدث مع الأب دفال الذي يتركنا للراحة على الطريقة الشرقية، فنرتاح من أتعابنا.

١٠ تشرين الأول (أكتوبر)

نقضي الصباح في تنظيم ملاحظاتنا. ثم نقوم بزيارة الى الراهبات اللواتي لهن بيت قريب من بيت الآباء[٩٠]. يريننا بيتهن بالتفصيل، منذ المستشفى وحتى غرف

(٨٩) مبالغة أخرى من الرحالة بشأن دفن الموتى.

(٩٠) لقد كان بيت راهبات التقدمة قرب دير الآباء الدومنيكيين في محلة الساعة بالموصل منذ مجيئهن الى العراق، وحتى تأسيس جمعية القديسة كاترينا للراهبات الدومنيكيات سنة ١٩٢٩، وإنتقال البيت العام لهؤلاء سنة ١٩٥٤ الى محلة موصل الجديدة. يفيدنا بنديه هنا بشأن مدارس الدومنيكيين والدومنيكيات ونشاطاتهم في الموصل. وقد سجلّ رحالتنا هنا إنطباعاً عن البلد وأهاليه غير سليم، آثرنا حذفه.

النوم والروضة ومدرسة الأطفال الصغار الذين يعلمونهم الحروف الفرنسية والحروف العربية في الوقت عينه. لانكف عن الإعجاب بالصبر الذي يتربّى بفضله هؤلاء الصغار. العديد من البنات يتركن الروضة مبكّراً، لاسيما من المسلمات اللواتي كثيراً ما تتم خطويتهن وهنّ بعد في المدرسة، وقد يتزوجن في سن العاشرة. أمّا البنون فيجتازون من مدرسة الراهبات الى مدرسة الآباء حيث يكملون تعليمهم.

إذ ندخل الدير (الجماعة)، يدعونا الآباء بدورهم الى زيارة مبناهم الذي يتسع يوماً بعد يوم، ويستهوي كل عام أتباعاً جدداً. إنهم لايعلمون مع المسلمين، لأن أمر هدايتهم محظور، نزور المدارس والمطبعة القائمة بشكل حسن. تطبع فيها الكتب الدينية بالأرمنية (الآرامية) والأسطرنجيلية والكلدانية والسريانية والعربية[٩١]. موظفو وعمال المطبعة من الشباب الذين تربّوا لدى الرهبان (الدومنيكيين). إنهم حسنو التصرف، لكنهم بطيئون، فهم لم يتركوا هذه العادة المتأصلة.

بعد الفراغ من الزيارة، نأتي الى الديوان للإستراحة، فنلقى القنصل الإنكليزي قد جاء لردّ الزيارة والإعتذار لإنه لم يتمكن من تقديم إحتراماته للمونسنيور ألتماير قبل سفره. يدعونا الى الغداء يوم غد.

بعد الظهر، إذ ليس للآباء مدرسة، يعرضون علينا القيام بجولة حول الاسوار. نكلّف أحد الحمّالين بحمل جهازنا الفوتوغرافي نمضي أولاً الى التلغراف حيث نسحب من هناك منظراً عاماً للجسر الشهير وللمدينة.

كل القسم الخارجي للاسوار مخصص، كما ذكرت أعلاه، للمقابر. إنه مكان ساحر في الربيع، بعد موسم الأمطار، لأن هذا السهل القاحل الصحراوي، الذي قد يظن المرء بأنه لن يكون فيه سوى الرمال والأرض اليابسة، يكتظّ بالأعشاب والأزهار وكأنه جنينة، فيترك الأهالي المدينة لكي يخيّموا في خيم تحيط بهم حيواناتهم. ومواقيت الخصب هذه التي تبدأ بشهر كانون الثاني، ليست طويلة المدى، لأن الناس والحيوانات سرعان ما ينهبون العشب، وما تلبث الشمس أن تعطي الأرض مظهر الصحراء المخيّب.

(٩١) تأسست مطبعة الآباء الدومنيكيين في الموصل سنة ١٨٥٨، وكانت حجرية في باديءالأمر، ثم حديثة سنة ١٨٦٠. وقد أخطأ بنديه مرة أخرى فقال (الأرمنية) وهو يقصد (الآرامية).

عمر الاسوار نصف قرن تقريباً، إذ أنها شيدّت أيام حكم الپاشا أحمد[٩٢]. نستكمل طريقنا، فنلاحظ مرقداً صغيراً أكثر أهمية، ترتفع أربعة أعمدة من حجر يعلوها سقف في الزوايا الأربع للضريح. أولاد كثيرون يلعبون في هذا المكان. إنه حيّهم العام.

هذا المرقد الواقع في الزاوية الشمالية الغربية قد شيّده الآباء (الدومنيكيون) لتكريم ذكرى مسلم غني كان قد تفهّم عمل المرسلين النافع فقدم لهم خدمات جليلة[٩٣].

نلقانا أخيراً إزاء الواجهة الأخيرة، الجهة الشمالية التي كان يغمرها فرع من دجلة. أمام باب هذا الطرف تكثر الأكلات القادمة من دياربكر. الأب الفاضل دفال، ناظر (رئيس) الرسالة (الدومنيكية) الذي يسكن بلاد مابين النهرين منذ أكثر من ثلاثين سنة، يذكر إنه قد أستعملها.

دجلة هو أشد الأنهر هوى. يغيّر مجراه كما يستبدل (دون جوان) عشيقاته. فإن عام أمطار وفيضانات يحمله كيلومتر أعن المكان الذي إعتاد فيه مجراه وكان يظن إنه قد ثبت فيه بشكل نهائي. والموصل التي هي حالياً على الضفة اليمنى، لعلها كانت الأيام تأسيسها على الضفة اليسرى، في موقع ضاحية نينوى[٩٤].

نتأمل من أعلى باب الشمال المدينة والمنطقة الصحراوية المحتواة ضمن الاسوار والبيوت. بوسعنا القول إنها ساحة كبرى يلجأ إليها الرعيان وقبائل البدو محتمين

(٩٢) المقصود أحمد الپاشا الجليلي والي الموصل ١٨١٢-١٨١٧ ثم ١٨١٨-١٨٢٢، وفي عهده قام القنصل البريطاني ريج بالتنقيب عن اسوار نينوى.

(٩٣) إنه قبر سليمان آغا إبن يونس بن مصطفى بن يوسف إبن الملا محمد من آغوات محلة باب البيض بالموصل. ويحكي حفيده أمين آغا إبن عبدالله بن سليم بن داود أن الخدمة التي قدّمها جدهم للآباء الدومنيكيين مكنّتهم من بناء الكنيسة وبرج الساعة وخففت البلبلة التي أثيرت حولهم بسبب إسخدامهم عربات ذات عجلات لنقل مواد البناء وشكوك بعضهم حول قيام الآباء بأعمال ليست في صالح البلد، وقد كان لي أن أطلع قبل سنوات على وثائق ماتزال غير منشورة، جلّها رسائل وتقارير هؤلاء المرسلين.

(٩٤) يبالغ الرحالة في وصف تغير مجرى دجلة، ولو إنه محقّ بعض الشيء كما يبان من آثار المهود التي تركها هذا النهر لكي يتخذ له مسالك غيرها.

ضد الغزاة في حالات غزو ما.

تمتّد التحصينات بإمتداد النهر عمودياً. وفي المنطقة التي تتصل به، ترتفع كهضبة كان مشيّداً فوقها قلعة مهيمنة على النهر كالرأس من الجسم مسافة خمسين متراً[٩٥]. نمر قرب قبر عجيب وقديم جداً. إنه من الطابوق المشوي. تحمل الواجهة الشمالية منه كتابة يبدو إنها بالغة الأهمية. لكنني مع الأسف لست قادراً على أن أحكم عليها، إلا أن المسيو سيوفي قنصلنا، المتبحّر باللغة العربية، يقدّرها حق التقدير، وقد بعث بطبعها الى باريس. أمّا من الناحية الفنية، فإن هذا القبر غريب حقاً، إذ توجد من جميع أطراف الباب، أسفل الكتابة، مقطعان من طابوق طبيعي مسبوك، برسوم مذهلة، وخطوط عريضة عرض سنتمترين، موشاة بزمرد الخزف المطلي الأزرق بشفافية كبيرة خالصة تماماً[٩٦].

بينما كنا نتجوّل، لاحظنا على الوجوه آثار بثور، أو خراجات، كأنها الدمامل. إنه مرض المراكز الكبيرة في هذه البلدان الحارّة. يسمونّها، وفقا للمدن التي يصاب فيها المرء، حبّة حلب، أو حبّة دياربكر، أو الموصل، أو بغداد. كنت قد رأيت في الجزائر مسامير بيسكره، ويبدو لي أن لها بعض العلاقة مع هذه، فإن هذه الحبوب – البثور المجهولة الأسباب، تظهر أولاً على شكل نقطة صغيرة حمراء، ثم ما تلبث أن تكبر حتى تغدو بحجم مسمار صلب، ثم تنفجر وتزول خلال عام، مخلّفة أثراً داكناً سيئاً. وقد جاء بغداد أطباء أوروبيون لدراستها خصيصاً، غير أنهم لم يحصلوا على نتيجة، بل جعلوها أشد حساسية، وغدت البثور أشد سماجة. لانجد وجوداً لهذه الحبوب إلاّ في المدن ذات الشأن، فهي موجودة في الموصل، ولاتظهر البتة في قرية النبي يونس الصغيرة الواقعة في الأحوال الصحية عينها. ولايخلو الناس النظاف والمعنيون بأنفسهم منها، بل حالهم كحال الذين يعيشون في قذارة مستمرة. وفي خط حلب وديار بكر والموصل وبغداد، لاتظهر في قرى صغيرة تتوسط هذه المواقع. بل ثمّة

(٩٥) إنها قلعة باشطابيا (البرج الرئيسي) التي كان لها دور كبير في صد غزو طهماسب نادرشاه للموصل عام ١٧٤٣، وينوّه بآثار دار الأمّارة (قره سراي).

(٩٦) إنه قبر إبن أو أبناء الأثير، وأشهرهم صاحب (الكامل في التاريخ) ويقع القبر قرب باب سنجار.

واقع غريب، كونها تظهر في وجوه أهالي البلد، بينما بالنسبة للأجانب تظهر على الأذرع والأيدي. لكنها ليست قاعدة عامة. ولايعرف أحد كيف يصاب المرء بها. إذ يذكر أن مسافرين أصيبوا بها مع أنهم لم يبقوا إلاّ بضعة أيام في إحدى هذه المدن المذكورة، بينما لم تظهر على آخرين سوى نقطة حمراء بعد عودتهم الى بلادهم بعدة أشهر. كل المرسلين تقريباً مبتلون بها، فهي ضريبة يجب أن تدفع. أحد هؤلاء السادة يتألم حالياً من إحدى هذه الحبوب التي أصابته في خدّه.

يميّز الناس في بغداد نوعين منها: الحبّة الذكر التي تجيء وحدها، والحبّة الأخت التي تتكاثر. والأخيرة من حجم أصغر، بل إنها فظيعة كالذكر. وقد ذكر لي أن أحدهم أبتلي بثلاثين منها. وأحد الدومنيكيين الذين عاشوا في الموصل ست سنوات لم يصب بها، لكنه بعد عودته الى فرنسا بثلاث سنوات، أصيب بحبّة مريبة في الصدغ. لقد كان فطنا فلم يحاول أن يوقف تطورّها، فإختفت الحبّة، إذ إنه من المعروف إن كل من حاول معالجة هذا الداء، يحمل من جرائها آثاراً مروعة.

نعني بإعداد الكلك. إن عدة آباء قد قاموا بقطع المسافة، لذا فهم يزودوننا بخبرتهم بقدر ما يتمكنون، نجّار الدير (الجماعة) يهيء لنا خيمة صغيرة من الخشب مفروشة بالقطن والأقمشة القطنية. ومدبّر البيت يتكلّف بشراء اللوازم. أن الإنحدار الى بغداد يتطلب أربعة أو خمسة أيام في آذار أو في نيسان، عندما تكون المياه مرتفعة، ويستمرّ أحياناً عشرة الى إثني عشر يوماً في هذه الفترة من السنة الأشدّ جفافاً. يلزمنا وقت أكثر من مدة عبور المحيطات للذهاب من هافر الى نيويورك. فالنهر يسير في صحراء تامة، وبوسعنا أن نهلك جوعاً إذا لم نؤمّن لأنفسنا كل شيء قبل السفر، فالضفاف الجرداء لاتزودّنا حتى بالحطب الكافي للطهي.

مسيو سيوفي لم يرجع بعد، فنأسف لذلك جداً. إذ إننا بواسطته كنا نتمنى أن نقدم أنفسنا الى السلطات. الأب دفال يعلم والي المدينة والولاية بأننا سنزورهما غداً.

لدى عودتنا الى غرفتنا نرى ثيابنا التي كان من طيب الراهبات أن يقمن بغسلها وترتيبها. إنها خدمة لاتثمّن، لأننا سنلقى في طهران فقط أمتعتنا، وفيها إحتياطاتنا.

١١ تشرين الأول (أكتوبر)

نمضي على فرس لزيارة السلطات، لأن الذهاب مترجلين دليل نقص لياقة وسبب إحراج. نقصد أولاً الوالي العام للمنطقة، تحسين پاشا الذي يسكن خارج المدينة في المبنى الكبير المستخدم كثكنة، ومنه نشاهد بيت التلغراف.

نجتاز المدينة، يحمينا القوّاصون وخادمان يمسكان بجوادينا أثناء الزيارة. نخرج من باب لكش[٩٧]،فيبدأ ممشى طويل بعد منطقة المقابر، يقودنا الى السراي، محاط بصفين من الأشجار، كلها مريضة أو ميتة، أما قرب القصر فلايوجد أثر للنبات. لماذا زرعوا الكاليبتس والدردار والسنديان التي لاتقوى على التكيّف على المناخ، ولم يزرعوا ممشى جميلاً من النخيل كان سينجح حتماً؟[٩٨]

إذ نلج البوابة، يخرج رجال البريد مستعرضين الأسلحة إحتراما، البعض منهم أمام المدفع، والآخرون خلفه. نترك الجوادين في الفناء. ونصعد الى الطابق الأول حيث يقدم لنا بريدي آخر إستعراض الشرف. يدخلوننا الى صالون صغير فيه الوالي. يرتدي بزّة أوروپية، وقامته حسنة. يتكلم الفرنسية، ويستقبلنا بكياسة. الصالون الصغير مطلّ على الواجهة المشرفة على النهر. ثمّة منظر لطيف من خلال الشبابيك ذات الحدائد، يطل على الريف ودجلة والقرية. كلمات الپاشا مفعمة، كما هي العادة دوماً، بمجاملات ووعود مفرطة في مبالغات لايمكن أن تتحقق لو طبقت فعلا، ورغم ذلك فإن الوالي يعدنا بأن يعطينا شرطة (جندرمة) للسفر.

يكثر على ضفاف دجلة أفراد يسلبون الأكلاك، وقد نهبوا عدة أكلات في الأيام الأخيرة، فمن غير الفطنة أن نمخر النهر دون حراس.

بعد زيارة ربع ساعة، وإحتساء ما لابدّ منه من عصير وقهوة، نودع تحسين پاشا[٩٩]، شاكرين له حسن نواياه. نمرّ بسلسلة من التحيات المسلحة ذاتها، ونغادر

(٩٧) صورة جميلة لباب لكش، يمكننا إعتبارها وثيقة نفيسة جداً. وتاريخ الباب سنة ١٢١٧هـ.

(٩٨) مبالغة أخرى لرحالتنا، فهو لايدري بأن النخيل لاتتحمل مناخ الموصل شتاء. وموقع (السراي) معروف، قرب الجسر الحديدي، مطلّ على النهر.

(٩٩) حاكم ولاية الموصل عهد ذاك تحسين پاشا. فقد إستعادت الموصل منذ سنة ١٨٧٩ شأنها، فأصبحت ولاية لا سنجاق، كركوك والسليمانية، بالإضافة الى سنجق المركز.

باب لكش- الموصل

القصر للذهاب لدى حمدي بك والي المدينة[١٠٠]. الإرتخاء واللامبالاة الشرقيان يريحانني بحيث إني أترك الخادمين يقودان حصاني، ماسكين أياه كل من جهته.

مسكن حمدي بك هو الى جانب القنصلية الفرنسية. الإستقبال حميم بنوع أكبر. ليس ثمّة جنود على الباب، لأن الوالي في بيته، في مسكن صغير، بقميص غير مزرر، وبنطلون من قماش أوروپي. يجلس على كرسي ديوان ماسكاً بيده رجله المكسوّة بجورب. لدى دخولنا يترك رجله لكي يمدّ إلينا يده. يحيط به بعض الأوروپيين، أحدهم مهندس نمساوي مكلّف بإدارة طريق الموصل. سكرتيره الذي عاش سنة في پاريس، لايتذكر سوى حيّ بريدا، بولييه وشارع سان ميشيل[١٠١]، فهو قد ركزّ هناك حماسه للمدينة الأولى في العالم.

أما حمدي بك فلا يعرف پاريس، وشوقه كبير في الذهاب إليها. هل الوصف الذي نقوم به والحكاية الخيالية لسكرتيره هما مبعث تجربته؟ يتكلم الفرنسية بنوع أفضل من رئيسه. وبما أن الرسميات هنا أخفّ، يكون الحديث سلساً. إنه غير متزوج، وهذا الأمر هو علامة إنحطاط كبير هنا. خلال لحظات قليلة يقدّم لنا القهوة وسكاير محلية.

(١٠٠) والي المدينة يومذاك حمدي بك، ويقع مسكنه في المحلة المعروفة بالقلعة.

(١٠١) أحياء وشوارع في مدينة پاريس: Bréda, Bullier, Saint-Michel

تستحق السكاير وصفاً خاصاً، فهي تعوض عن الشيبوك في الإستقبالات، لأنها مريحة أكثر وأسهل من حيث التقديم، لكنه عمل كبير لتركي لكي يتعلم كيف يلفّها. فثمة باعة موجودون في السوق، يصنعون أنابيب ورقية مخروطية قليلاً، يبيعونها فارغة، فتملأ في البيوت بتبغ جاف جداً، أشبه بالتراب (البودرة)، فتكون السيكارة. إلا أن فيها ما يزعج، إذ ليس للتبغ ثبوت، بل ثمّة خطر سقوط القسم المتأجج، بحيث يحرق الطنافس والأثاث، لكنهم يتخذون الحيطة بوضع إناء صغير من الجلد لكل مدّخن لكي يضع فيه رماده.

نودع حمدي بك، ونمضي لدى قنصل إنكلترا الذي ينتظرنا[١٠٢]. نصل نحو الظهر.

يقدّم لنا الغداء في ديوان شبيه بديوان الآباء. نتحدّث عن ندرة السائحين، فمنذ ست سنوات لم يأت إنكليزي واحد الى الموصل. ثم يتحوّل الحديث الى الصيد، فالقنصل معجب جداً بذلك، ويأسف لأنه لايلقى هنا رفيقاً يطارد الجبال ويصطاد الخنزير والدب.

الدبّ يخشى السكان جداً، وغالباً ما يهجم على الماشية. تدور حوله قصص غريبة جداً فيوماً ما، في قرية صغيرة، أختفت إمرأة إختطفها دب، فبحث الزوج عن إمراته في كل مكان حتى يئس من الأمر، وأخيراً وجدها في مغارة الدب. رجاها أن تخرج، لكنها رفضت قائلة إنها قد لقيت رفيقاً أشدّ لطفاً من زوجها "فهو يحمل إليّ العسل والثمار، ومساءً هو أحنّ بكثير، يلعس رجلي، يحتضنني، ولايضربني قط!" غير أن محمداً، (وهو إسم زوجها)، لم يكن له أن يتحمل هذه العلاقة، فقتل الدب، وأعيدت المرأة الى الدار الزوجية، وأصاب الزوج جلد غريمه.

نعود لدى الآباء نحو الساعة الثانية. إنهم قلقون لعدم عودة مسيو سيوفي، فقد ذهب حتى سنجار لكي يستقبل زوجته التي ستصل من دمشق عبر الصحراء، وتدمر (بالميرا)، والدير، والطريق هذه قاسية ومتعبة، فقد تمضي أيام ولايعثرون على بئر، كما يحدث أن تهاجمهم عصابات أعراب.

(١٠٢) قنصلية إنكلترا قرب محطة القطار حالياً.

لإشغال فترة مابعد الظهر، نتجوّل خارج المدينة، نحو الساعة الرابعة. ضفاف النهر مكتظّة بالعوسج على بعد كيلومتر أو كيلومترين جنوبي الموصل. الدرّاج موجود بكميات كبيرة. كل المساحة تغطّى بالمياه إبان الفيضانات، ربيعاً، لذا ينمو فيها بغزارة البطيخ من الحجم الكبير، والقرع، والرّقي، وهذه أساس غذاء السكان. والمزارعون الذين يزرعون هذه الخضراوات يخيّمون وسطها لحمايتها من السلب. وهم مسلحون، وقد يطلقون النار دون تأنيب ضمير ضد أول من يدنو منها.

لوحة إمرأة

ودجلة مملوء بالأسماك. ومن جملة أنواع السمك، أنواع ممتازة. أكبر أنواع السمك حتى بغداد، هو سمك طوبيا[١٠٣]، حجمه متر ونصف طولاً، وقطره من ٢٠ الى ثلاثين سنتمتراً. أما بعد بغداد، فإنا نلقى القروش، لذا فمن الخطورة السباحة دون إتخاذ إحتياطات. لقد شوهدت قروش تصعد في الكارون، أحد روافد دجلة، حتى شوستر.

وعلى ضفاف دجلة، على بعد بضعة فراسخ من الموصل، تنبع عيون كبريتية تنشر رائحة كريهة وتشوّه مذاق المياه. وبفضل هذه العيون يصلح النهر في عدة مناطق لشفاء أمراض الدم الخطرة المنتشرة في ديار العرب، ويحتاج المرض الى علاجات جدّية. وثمّة عدة منابع قار ونفط في جبال الغرب، وكذلك في جبل سنجار وجبل محلبية في الشرق، لكنها ليست مستغلة.

(١٠٣) نسبة الى طوبيا، كما في العهد القديم، سفر طوبيا، الفصل السادس، العدد ٢، وهو (الحوت).

بعد أن إسترحنا بضع دقائق، عدنا من الباب الغربي. قوافل كبيرة من الجمال يحرسها رجل واحد تخيّم خارج المدينة، قاعية على قوائمها الأربع المطوية تحتها، شبيهة باللقالق الجاثمة على بحيرة. وهذه الحيوانات تجترّ بهدوء. إنها صور حية للطف والصبر.

قرب قبر حديث العهد، تنوح باكيات ويتنهدن مولولات. وحين تشاء نساء الميت عدم تحميل أنفسهن هذا العبء، يدفعن لعدّادات مبلغاً، فيقمن بالنواح بحسب الساعات المتفق عليها، مطنبات بخصال المتوفى. هذه التمثيلية الصغيرة، أيا كان يوم الوفاة، تستمر حتى الجمعة لأن الله يفتح أبواب السماء للميت يوم الجمعة، بحسب الإعتقاد، لذا فهو خير عميم أن يموت المرء يوم الخميس، وقد يتم تقريب وفاة المريض أحياناً لهذا الغرض.

لدى عودتنا الى الدير (الجماعة)، نلقي مؤجر الجياد الذي جاءنا به المدبّر. إنه سيقودنا الى نينوى وخورسباد. نودّ السفر الساعة السادسة صباحاً، الثانية عشرة بحسب التوقيت التركي، أي مع طلوع الشمس.

١٢ تشرين الأول (أكتوبر)

الجياد جاهزة في الساعة المعينّة، طعامنا موضوع في خرجين يحملهما حصان الدليل. نجتاز المدينة وهي هادئة جداً في الصباح كما في النهار. ثم يستيقظ السوق، ويفتح الباعة دكاكينهم، وتنظّف المقاعد، وعليها بعض الرواد. نصل الجسر، الإزدحام فيه كبير، لاسيما في الساعات الأولى من النهار، لأن المدينة مغلقة ليلا. كذا الإزدحام شديد، بحيث إننا نضطرّ على الدخول والخروج بإنتظام لتجنّب المحاذير التي قد تقود بلاشك الى صدمات للحيوانات المحمّلة بالصناديق الضخمة. ثمّة مقهى كبير في أعلى الباب، يرتاح فيه بكسل ولامبالاة رواد هادئون يدخنون متفلسفين، محتقرين صخب الجماهير[١٠٤]. ونحن مضطروّن أن ننتظر لكي يمرّ الموج الوافد من الإتجاه المضاد. الحيوانات تتبلبل، والجمال بنظراتها الثاقبة تحركها

(١٠٤) لقد كان هذا المقهى قائماً الى سنوات قليلة مضت، ويعرف بمقهى (الثوب) عند باب الجسر القديم.

صراخات الناس، فتدفع الحمير بمجموعها دون أن تراها، على الجميع أن يتدافعوا لدى العبور، ومن لايتمكّن من دفع الرسوم، يترك منديلاً أو عقالاً أو قميصاً أو رزمة له، يحتفظ بها كرهان، وقد يباع الغرض مساءً بالمزاد إذا لم يأت صاحبه ويسدد ما عليه من ضريبة.

إن قنصل إنكلترا، بحجة أن يرينا تل قوينجق، يعيرنا قواصه، إنما غايته الحقيقية الإطلاع على ما نفعل، فالإنكليز يعزون الى أنفسهم كل المجد بالنسبة للإكتشافات التي تمت في نينوى وعلى مجاري دجلة. غير إنهم، رغم قيامهم بأعمال كبيرة بهمة لايارد ولوفتس، وإبرازهم الى حيز النور بقايا دفينة لمدن عظيمة، فإن بوتا الفرنسي هو حقاً أول من إكتشفها وأظهرها[١٠٥].

فسنة ١٨٤٢، إذ كان بوتا عائداً يوماً من فارس، وماراً بالموصل، إستحثه طابوق أراه أياه الأهالي، ومصدره هضبة واقعة على الضفة الأخرى من دجلة، أن يسأل الحكومة الفرنسية لكي تخصص له موقعاً كقنصل لفرنسا، لكي يعمل في الحفريات. وقد تم فعلاً إنشاء المنصب، وبوشر بالحفريات، لكنها لم تعط نتائج كبيرة.

ولما عرف سكان قرية خورسباد بأن فرنسياً يبحث عن الطابوق، حملوا إليه طابوقاً، مدعين إنه بوسعهم إيجاد كميات أكبر في حقولهم، فتحوّل بوتا الى هناك،

(١٠٥) بشأن التنقيبات في نينوى والمدن الآشورية الأخرى والمواقع الأثرية في شمال العراق، أنظر:
د. محمود الأمين، إستكشافات أثرية جديدة في شمال العراق، مجلة سومر، المجلد ٤ (١٩٤٨)، ود. فوزي رشيد، حل رموز الخط المسماري، مجلة بين النهرين، السنة ١، العدد ٤ (١٩٧٣)، وعلوم البابليين لروثن، الفصل الثاني والخ. وبشأن الآثاريين والمنقبين المذكورين هنا:

E. H. Layard أوستن هنري لايارد (١٨١٧-١٨٩٤) آثاري ودبلوماسي إنكليزي، قام بالتنقيبات في نينوى ونمرود وآشور وبابل وكيش في السنوات ١٨٤٥-١٨٥١.

Sir W. K. Loftus السر وليم كنت لوفتس، آثاري إنكليزي نقب في سوسه سنة ١٨٥١، وإستكشف القسم الجنوبي من بلاد بابل ولارسا، وأرسله رولنصون الى نينوى ونمرود لإستكمال الحفريات.

P. E. Botta بول أميل بوتا (١٨٠٢-١٨٧٠) إكتشف خورسباد ونقب فيها أيام كان قنصل فرنسا في الموصل، ويعتبر أول من إبتدأ بالتنقيبات في تل قوينجق (نينوى) وذلك منذ سنة ١٨٤٢.

ولقي في خورسباد آثاراً أشد وضوحاً مما في قوينجق[١٠٦]، وإذ لم تكن لديه مبالغ كافية للعمل في الموضعين معاً، أهمل تل قوينجق، وإبتدأ العمل في الموقع الجديد.

ولما كانت قرية خورسباد الصغيرة تقع فوق الأطلال، غير (بوتا) مكانها، إذ شيد على نفقته الخاصة قرية في السهل، حيث هي الآن. وابتدأت الحفريات.

وقد أكمل پلاس، خلف بوتا، هذا العمل بشكل ممتاز[١٠٧].

إن خرائب قصر سرجون هي التي رأت النور بالشكل الأكمل وبالعناية الأتم، وذلك بنوع أفضل من جميع أطلال بلاد ما بين النهرين. فقد كان القصر منفياً، وأشغلت مساحة الحفريات نحو عشرة هكتارات. من هذا القصر جاءتنا الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية الموجودة حالياً في اللوفر. وثمّة قطع أخرى عجيبة كانت مخصصة لمتاحفنا لم يتمكنوا من أيصالها، إذا إنها حملت بصعوبة الى دجلة، إلا أن العديد منها إبتلعها النهر. وقد إكتشف پلاس أيضاً كتل حدائد، وبقايا أسلحة، وأدوات وآلات حديدية من شتى الأنواع[١٠٨].

لنعد الى نينوى والى زيارتنا. على الرغم من أن جزءً ضئيلاً فقط من التل ثم تنقيبه بشكل جدّي، وإن ثمّة تلولاً كثيرة أخرى تنتظر دورها لكي تبرز للعيان وتكشف عن بعض أسرار الإمبراطورية العظيمة المتوارية. فإن الأوامر تمنع، بقرارات حكومة لاتبحث عن إكتشاف الثروات لنفسها، وتمنع الآخرين من التنقيب، فالباب العالي يرفض كموقف، الفرمان الضروري لإستئناف الحفريات. وإذا ما منحه من باب الصدف، فبالشرط الوحيد أن أي عمل فنيّ مكتشف يعود إليه، وكمكافأة عن الأتعاب، لايسع العلماء والباحثين الدؤوبين سوى الحصول على خرائط وبعض

(١٠٦) نينوى هي المدينة الثالثة للآشوريين، بعد آشور ونمرود، ومن أهم معالمها القصور والمعابد المكتشفة في تل قوينجق والأسوار والأبواب، وتل النبي يونس يحتضن آثاراً مهمة. أما خورسباد، أو خورساباد، فهي دور شروكين العاصمة الرابعة بناها سرجون الثاني، وقد كشف فيها عن القصر والمعابد والبرج المدرج أي الزقورة.

(١٠٧) Victor Place فكتور پلاس (١٨١٨-١٨٧٥) قنصل فرنسي، نقب في خورسباد في السنوات ١٨٥٢-١٨٥٤.

(١٠٨) يحيلنا الرحالة الى هذه الكتب للمراجعة بشأن التنقيبات في نينوى وخورسباد:

Parrot et Chipiez, Histoire de l`art dans l`antiquité; Place, Ninive, Beulé, Fouilles et découvertes.

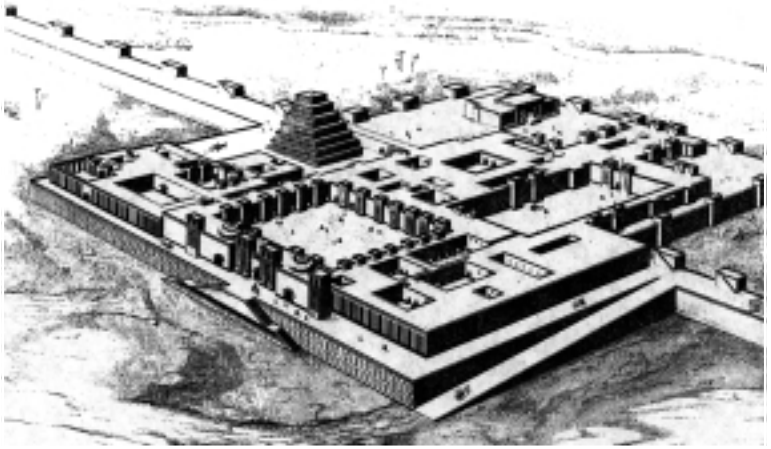

مخطط خورسباد

التخطيطات والرسوم والصور الفوتوغرافية، لذا نراهم ييأسون ويتركون العمل. ومع ذلك، فإن الإنگليز، لكي لايفقدوا حقوقهم في تلّ نينوى، أقاموا في الموضع كوخاً ذا ستة أقدام مربعة من التراب المسحوق، بدون سقف، يضم بعض أكوام أدوات وطابوق، ملقاة كالنفايات في إحدى الزوايا، يطلقون عليها بتفخيم: المتحف البريطاني.

لا أهمية كبيرة لما أكتشف حتى الآن، من وجهة نظر تاريخية. وحتى من وجهة نظر الإكتشافات عينها، فإنها ستكون أغنى لو أن علماءنا عرفوا قراءة الكتابات العديدة بشكل أكيد، فهي تغطي الجدران والمنحوتات. وما يظنون بأنهم قد فهموه، مايزال قابلاً للجدل، على الرغم من الكتابات ذات اللغات الثلاث المكتشفة في وان وبيستون[١٠٨]*

(١٠٨)* وان Van مدينة معروفة واقعة على البحيرة التي تعرف بإسمها، في تركيا الشرقية. أما (بيستون)، ويكتبها بنديه Bisoutoun فتقع بين كرمنشاه وهمدان، وقد عثر هناك على حجر يحمل كتابة ذات خطوط ثلاثة بالمسمارية، وباللغات الرسمية الثلاث التي كانت مستخدمة عهدذاك في فارس وهي الفارسية الأخمينية، والعيلامية الحديثة، والبابلية، وقد كانت الأخيرة لغة الشرق الدبلوماسية يومذاك (أنظر: علوم البابليين، تأليف مارگريت روثن، ترجمة د. يوسف حبي، ص٢٤).

فإنها قد ساعدتهم كثيراً. وثمّة كتابات أخرى عديدة بأحرف مسمارية ماتزال غير مشخصة.

لقد كانت الغرف الداخلية لهذه القصور مكسوة من جميع الأطراف بصفائح مرمرية منحوتة تمثل معارك أو مشاهد صيد حيوانات وأسماك، ودجلة بأسماكه، وواحات مليئة بالنخيل، وفي الغالب كتابات طويلة على المنحوت عينه. وثمّة آثار العنقاء، والأسود، والثيران المجنحة الهائلة، فوقها جميعاً حروف منحوتة تبدو إنها تحكي وقائع تاريخية مهمة. ويبدو الطابوق المشويّ الذي نلقاه مستخدماً للألواح والكتب، لا كمادة بناء.

نمتطي الجياد بعد نحو ساعتين، ونغادر الى خورسباد، مقتفين مجرى غدير صغير.

الريف مزروع، ولانتبيّن حقول الحنطة والشعير والحبوب إلا من خلال سيقان تنمو بعد الحصاد. نصادف بعض حقول قطن من نوع ضعيف، الى جانب حقول خشخاش وأفيون. بيوت الفلاحين هي حقاً قلاع صغيرة مربعة الشكل، عرضها أربعة أمتار وعلوّها كذلك. ماعدا الباب، الفتحات الوحيدة كوى صغيرة أشبه بقرساي لويس الرابع عشر الآشورية[١٠٩]، إنه مطمور مرة أخرى. لدى حفري طرف ثقب، أزلت كميات كبيرة من التراب كانت تغطي حائط طابوق منقوش. الرسم المتكرر مراراً، كان شريطاً زخرفياً، يمّثل الموضوع عينه على مجموع طابوقات ثمان. قضيت ساعتين في الكشف عن هذا الأثر بسكّين الصيد، وقد كانت الحرارة فظيعة، والهواء ناقصاً في هذه الحفرة، لذا كان تعبي كبيراً جداً. كلّفت أحد الفلاحين بحمل نتيجة عملي المضني الى الموصل، ووعدته بمكافأة كبيرة إذا ما وصل كل شيء إليَّ بحال جيدة.

نعاود السير، فنمرّ بالقرب من جبل صغير. بإتجاه الموصل بوشر بشيء طفيف من حفريات أبانت رأس ثور مجنح ضخم، ثم توقفت الأعمال بحجة أن هذا الأثر، الشبيه جداً بسوابقه، لن يحمل شيئاً جديداً بالنسبة للعلم. غير إن هذه المجنّحات الضخمة تحمل دوماً في المساحة المستوية، أي في الفراغ الذي بين السيقان، ألواحاً مكسوّة بالكتابات.

(١٠٩) Versailles على بعد ٢٣ كم جنوب غربي پاريس. قصر منيف وحدائق غنّاء، عزز مجدها أكثر من ملك، أشهرهم لويس الرابع عشر. وقرساي اليوم متاحف وقاعات إستقبالات كبرى.

من أعلى الهضبة التي نحن عليها، نشاهد في عين الإتجاه (إتجاه الموصل)، هضبات شبيهة الشكل والحجم، من المحتمل أن أيّا منها يحمل حيواناً مماثلاً أستخدم سابقاً كفاصل ميداني أو مؤشر للطريق.

الطريق الذي نسلكه للعودة، ليس الطريق الذي أتبعناه في ذهابنا. نمرّ بقرية (بيبو) بحيث نشاهد مائدة صغيرة على شكل مثلث غريب الشكل، فهو مقطوع من كتلة حجرية واحدة. المنضدة دائرية، قطرها ثمانون سنتمتراً، وسمكها نحو ستة سنتمترات، عليها كتابة مسمارية، ورجلها التي تكوّن جسماً واحداً معها، بشكل منشور ممتليء مثلث ذي حراشف قليلة الحفر متجّهة الى الأعلى، تمثل مخالب أسد ذي أربع أصابع، على علوّ عشرين سنتمتراً من القاعدة.

نقضي وقتاً طويلاً على الفرس حتى نبلغ رباط التلول التي تغطّي أسوار نينوى، ثم ندخل الموصل.

الأطلال محفوظة، لحسن الحظ، دون أن يلحق بها الضرر، تحت التراب الطيني الذي يغطيّها ويضمن بقاءها ضد تقلبات المناخ. وربما يشير في طريقة تشييد تلك القصور، ما يبان وكأن لا وجود للأسس فيها. فقد كانوا يبدأون البناء برفع قاعدة عظيمة من الطابوق والحجارة فوق الأرض بعلوّ مترين أو ثلاثة، ثم يقام البنيان فوقها. وتبدو قاعدة القصر في الحفريات التي تمّت في خورسباد أنها أعلى بكثير، إذ كانت تبلغ، حسب پلاس، علوّ الأسوار، وتبلغ هذه، وفقاً لقياساته، نحو ثمانية عشر متراً. بينما يبلغ عرضها في القاعدة أربعة وعشرين متراً. وهذا ما يشرح كيف أن ديودور الصقلي يروي بأن عربات عديدة كانت تطارد على الواجهة في أعلى الأسوار[١١٠] فإنّا نلاحظ آثار ذلك هنا.

يجب أن تكون الغرف عالية، ومن جميع الأطراف في الداخل ألواح من المرمر مثبتة على طول الجدران المبنية من الطابوق المجفف بالشمس (اللَّبِن). ونادراً ما تكون هذه الألواح أعلى من أربعة أمتار، وجد منها في النمرود بعلو ثلاثة أمتار، بينما إرتفاع الأسود والثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية التي كانت تشكل

(١١٠) ديودور الصقلي ٧:٢. وأنظر هيرودوت، الكتاب الأول، ١٧٩. وراجع سفر التكوين ٣:١١ (الرحالة).

خناجر

سكاكين

غمد خنجر

آنية عربية

معطف ملكة كلدانية

مداخل الأبواب، يبلغ خمسة أمتار ونيفا، ولم تكن هذه الحيوانات لتبلغ سقف الغرفة، بل أن الحائط يزيد متراً آخر، وكان القسم الأخير مشيّداً بالطابوق المشوي المنقوش، ممثلة فيه أشكالاً أو زخارف غنية، أو إنها كانت من طابوق بسيط مجفف في الشمس (أي من اللبن) ومطلي بطبقة خفيفة من الملاط (البياض) المصبوغ كذلك، كما يمكن ملاحظته من البياض الساقط الذي حافظ التراب عليه(١١١).

لقد أكدّ لايارد منذ زمن طويل بأن سطوح الغرف لايمكن أن تكون إلاّ من أخشاب (مدود) كانت تنشر عليها طبقة من تراب مسحوق. وكان يدعم رأيه هذا بعرض الغرف القليل، كما وإنه لم يعثر في الأنقاض على بقايا عقد (قبب). أما پلاس، ومساعده فلاندن فكانا يبرهنان على العكس بأن الآشوريين إستخدموا العقدة كثيراً، وعليها كانوا يسندون السطوح التي تشكل السقوف، وقد كانت هذه العقد من التراب المسحوق المخلوط ربما بالأغصان، وكان سمكها كبيراً لكي تحمي من الحرارة بمقدار أكبر. ولعل الطابوق المشوي كان يشكلّ القسم الداخلي منها. وليس لنا إيضاح هذه النقطة، لأن ما بقي من الحيطان لايصل، ماعدا في باب خورسباد، الى قاعدة القوس. وحين هجرت القصور، أو خربت بالحريق الذي أشعله الغزاة، تهدّمت العقد، ومعها القسم من الحيطان المشيّد بالطابوق المشوي الذي فوق القطع المنحوتة، وهذا التهدم الذي دفن المنحوتات بشكل كامل، هو الذي ضمن لها الحفاظ، إذ لم يكن في الإمكان إطلاقاً الحفاظ على هذه المنحوتات لو إنها ظلت زماناً طويلاً معرضّة للهواء، أو فيما لو كان تجمّع التراب والرمال قد سبب لها الدفن بشكل تدريجي(١١٢).

ويمكن تعليل سمك السطح بندرة الحجارة، وخاصة لحاجتهم للإحتراز من الحرارة. إذ يبدو أن كل شيء قد دبّر لحماية النفس ضد مناخ قاس. فالغرف عالية وطويلة،

(١١١) يذكر الرحالة المراجع التالية: Place, Ninive et I`Assyri; Botta, Monument de Ninive; Perrot et Chipiez, Histoire de I`art dans I`antiquité.

(١١٢) ملاحظات ذكية يقدمها بنديه بشأن السقوف وحفظ الآثار بفضل تجمع التراب والرمال والكثبان. وقد أبانت حفريات السنوات الأخيرة والصيانة في النمرود بأن الآشوريين كانوا يستخدمون ما يشبه العقدة لسقوف طويلة وقصيفة، يشيدونها بالطابوق المشوي، لا بالمدود الخشبية.

مدخل قصر خورسباد

وكأنها ممرات كبيرة، يتلاعب الهواء فيها بسهولة، والحيطان سمكية بدون شبابيك أو بفتحات صغيرة مشرعة على أفنية كان لها سقف دائري يحمي البرج فهو أشبه بالرواق.

في كل قصر فناء كبير رئيسي كانت تجري فيه الإجتماعات والإحتفالات الكبيرة. ويحمل هذا الفناء آثار القليل من المنحوتات. لقد كانت محمية في المناسبات الكبيرة بستارات (جوادر) واسعة، فثمّة ما يشبه الحيوانات البرونزية[١١٣] مثبتة في الأوتدة، تحمل على ظهورها حلقات، مما يبدو إنها صنعت لتعليق الحبال والسلاسل.

لقد كانت هذه القصور معالم وطنية عليها ثقل يوميات الإمبراطورية، كما تمثّل الأحداث المجيدة نحتاً. فمن كان يدخل إليها، كان يقرأ تأريخ الأمّة، إذ كانت الموضوعات المنحوتة تؤشر التفاصيل بشكل أشد حيوية، فكانت هكذا نصب أعين الملوك على الدوام الأحداث الكبرى لأجدادهم، ولتكريم الآلهة.

يبدو أن المدخل الرئيسي لقصر قوينجق كان الجانب الشرقي المعاكس للنهر، ففيه كانت الثيران الكبيرة الحاملة يوميات سنحاريب الذي إليه ينسب قيام هذا البناء العظيم. وسنحاريب هو إبن الملك الذي شيدّ خورسباد، وإسمه على الكتابات التي تعلو الثيران في القسم الجنوبي الغربي من نمرود، وعلى العديد من كتابات الطابوق، وعلى آثار أخرى من هذه الأطلال، كما في خرائب خورسباد.

(١١٣) لقد عثر في الغرف على مجاميع حيوانات مماثلة، بكميات كبيرة وأحجام مختلفة، يحتفظ بها كأوزان، وقد قام لايارد بتصنيفها (الرحالة).

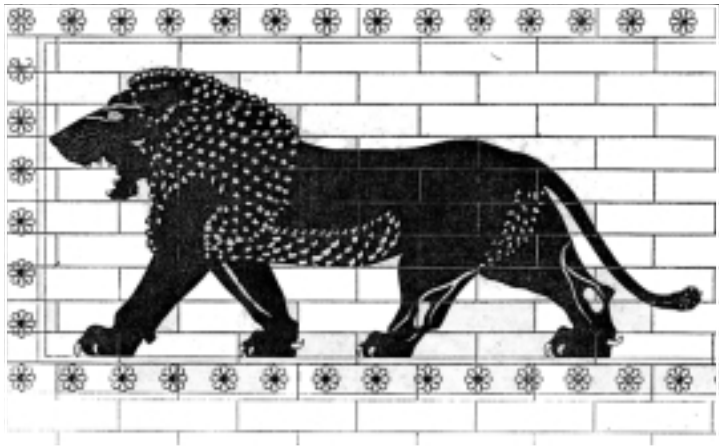

أسد من خورسباد

لقد كان من المعلوم بأن ملك خورسباد يدعى سرجون قبل أن تثبت قرابته مع نينوى. ويدّعي رولنصون[١١٤] بأن هذا الملك كان يحمل إيضاً إسم شلمنصر الذي نعرف عن اليهود في عهده، ويبدو بأن كتابات خورسباد تساوي ما بين شملنصر وسرجون[١١٥]. وفي أيام الفتح العربي، كان موقع خرائب خورسباد يعرف بأسم تل سرجون.

لأول مرة في أصطخر، عام ١٦٠٢، لاحظ بيترو ديلا فالي[١١٦] الأشكال المسمارية، وبعده شاردن[١١٧] لكنها بقيت غير مشخصة حتى سنة ١٨٠٠. وقد شاء

(١١٤) Sir H. K Rawlinson السر هنري كريسوك رولنصون (١٨١٠-١٨٩٥) آثاري إنكليزي، يعتبر أب الدراسات الآشورية. أشرف على التقنيبات في بابل وآشور في السنوات ١٨٤٢-١٨٥٥، وكتب عدة بحوث.

(١١٥) كنا لدى قراءة الكتابات التي تصاحب بعض أشكال (رسوم وتماثيل) الملوك والآلهة، ننساق وراء إعطاء قيمة رمزية إعتباطية لأحرف مستعملة كشعارات وألقاب، بينما كان لها قيمة مختلفة تماماً، كحروف أبجدية، وهذا ما يشرح سبب إختلاف وجهات النظر (الرحالة).

(١١٦) Pietro della Valle بيترو ديلا فالي (١٥٨٦-١٦٥٢) رحالة إيطالي ضليع بعدة لغات شرقية، ترك رحلة بالإيطالية فيها معلومات نفيسة عن بلاد الشرق والعراق.

(١١٧) Jean Chardin جان شاردن (١٦٤٣-١٧١٣) رحالة فرنسي زار بلاد الشرق وكتب مذكراته بعنوان: رحلة الى فارس والهند الشرقية، سنة ١٧١١.

هاگر[١١٨] أن يرى فيها أشكالاً رمزية، وسانده في هذا الرأي وجود رموز شبيهة بها في الهيروغليفية المصرية. حتى إهتدى گروتفند[١١٩]، عام ١٨٠٢، الى النظرية الصحيحة للألفباء، وجاءت كتابات بيستون[١٢٠] التي أكتشفها رولنصون لكي تكمل هذه التصريحات وتعززها، إذ أنها قدّمت لنا ثلاثة نصوص وثلاث لغات مختلفة جنباً الى جنب.

مشهد من خورسباد

ثمه نوعان من الألفباء المسمارية مختلفان تماماً. الألفباء الآشورية المختلطة برموز صوتية وتصويرية، وهو ما نلقاه في نينوى، وخورسباد، ونمرود، وبابل، ثم الألفباء الإيرانية المكتشفة في بيرسيبوليس المكوّنة رموزها من عناصر شبيهة بالسابقة، غير إنه لا علاقة لها معها. وبوسعنا أن نقسم الألفباء الى قسمين: البابلي القديم، والبابلي الآشوري[١٢١].

إننا نلقى البابلية القديمة على طابوق وإسطوانات وألواح متأتية من أطلال بابل وأطرافها. أما البابلية الآشورية ففي كتابات برسيبوليس وبيستون الثلاثية.

والبابلية القديمة هي ذات تنوع أشدّ إستغلاقاً، إذ يبدو أن من كان يستخدمها يتعمد تعقيد الأشكال البسيطة التي كانت للآشوريين. فنحن إذ نقارن أولاً الحروف عينها في الآشورية والبابلية، نلاحظ بأن إختلافاتها متأتية عادة من طريقة صياغة

(١١٨) Hager

(١١٩) Grotefend گروتفند، عالم ألماني، ولد سنة ١٧٧٥، وعمل على حلّ رموز الخط المسماري.

(١٢٠) بشأن كتابات بيستون راجع الهامش (١٠٤ مكرر)، وبشأن رولنصون، راجع الهامش ١١٤.

(١٢١) بل تقسم الأكدية الى البابلية والآشورية وقال بنديه خطأ: البابلي الأخميني.

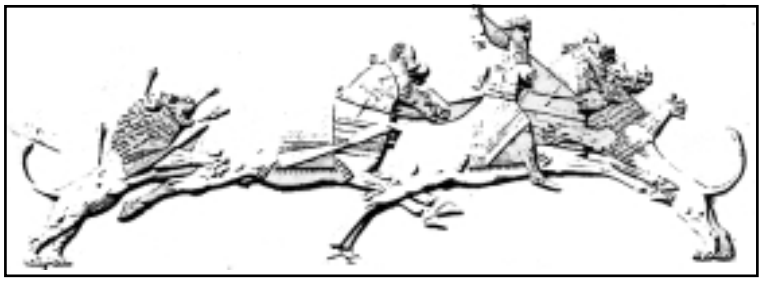

مشهد من خورسباد

العنصر على شكل مسماري رمزي، بحيث أن تصبح ، والحرف الآشوري هو عينه ، وهذا رمز متكرر في البابلية مراراً.

ومن المحتمل أن تكون الصيغة الأولى للحروف ذات خطوط بسيطة، كما تثبت ذلك كتابة عثر عليها لايارد في نمرود، على جدار القصر الجنوبي الغربي.

فإذا ما إستعضنا عن الخطوط بالمسامير، أي برأس السهم (النبلة) أو العلامات الفاصلة، فإن الرموز سوف تشبه رموز المواقع الآشورية الأولى. بينما هناك خطوط على طابوق بابل بدلاً من الإشارات. هكذا فإن 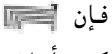 هي بدلاً من أو من لتمثيل الأحرف الآشورية المذكورة أعلاه.

وقد أتخذّ الرمز أحياناً شكل المطرقة

ويبدو أن الشكل المثلّث الزوايا للعلامة الفاصلة قد تمّ إستخدامه لأنه يعطي إنطباعاً طبيعياً عن زاوية منقوشة فوق مادة رخوة. ويبدو بأن هذا الشكل كان مقدساً، فهو قد مثل كشعار ديني فوق مذبح[١٢٢]. وثمة نوع آخر من الكتابة، هي الكتابة المائلة أو المقدسة (الكهنوتية)، المستخدمة عادة في الإستعمالات اليومية، كما في المستندات الخاصة، أو في الوقائع ذات الأهمية البسيطة. لقد كانت هذه

(١٢٢) هذا الرسم الغريب موجود حالياً في پاريس، في المكتبة الوطنية، وهو محفور على حجر تسمى (مسمار ميشو Caillou de Micahaud) (الرحالة)

الكتابات تستخدم دونما شك على الورق، وقطع الجلد، وكان يتمّ خطّها بالقصب. إنها تشبه كتابة الفينقيين، والتدمريين، واليهود، وتكتب من اليمين الى اليسار، بعكس الكتابة المسمارية. لكننا لندع هذه الكتابة الجارية الإستعمال، ولنعد الى الأولى فهي أهمّ من حيث الناحية التاريخية، أعني بها الكتابة المسمارية.

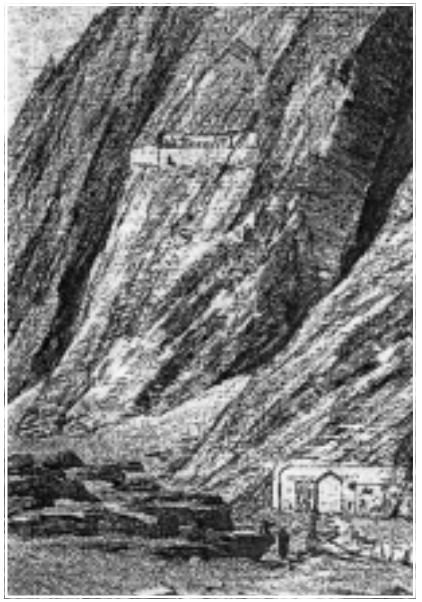

كتابة بستون

إن گروتفند، بعد بحوث مستفيضة، توصّل الى تحديد المحاور التالية بالنسبة الى الكتابة المسمارية: ليست حروف برسيبوليس رموزاً تشرح الأفكار، إنما هي أحرف ألفبائية، أي إنها ليست حروفاً مقطعية. وهذه الألفباء تضمّ هنا أربعين إشارة تشمل أيضاً حروف العلّة الطويلة والقصيرة. يدعم هذا الرأي مقارنة ذلك بلغة الزند[١٢٣]، وينبغي قراءة هذه الكتابة من اليسار الى اليمين. وهو يؤكّد بأن كتابات برسيبوليس مكتوبة بالزندية، وترجع الى عهد كورش والأسكندر[١٢٤]. سيطول بنا الأمر لو شئنا هنا

(١٢٣) Zend الزند، التسمية التي أستعملت في القرن التاسع العشر للدلالة على اللغة الهندو-أوروبية التي كتبت بها النصوص المقدسة للآڤيستا.

(١٢٤) كورش ملك فارس (٥٥٨-٥٢٨ ق.م)، يلقب بالكبير، إبن قمبيز. أخذ الحكم من الميديين. أما كورش الصغير (٤٢٤-٤٠١ ق.م) فقد هلك في الواقعة التي أراد فيها السيطرة على أخيه أحشورش. والأسكندر هو المقدوني ويلقب بالكبير (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)، بعد أن أخضع بلاد اليونان، تغلب على داريوس الثالث في عدة مواقع، أشهرها معركة أربيلا (كوكاميلا) عام ٣٣١ ق.م، ومات في بابل.

إعطاء كل السياق الذي سلكه گروتفند. غير إنه من السهل أن أوجزه بكلمات قليلة. فإن گروتفند إفترض أولاً بأن الكتابات التي ترافق أشكال الملوك إنما تذكر أسماءهم والقابهم، فإمتحنها إسماً إسماً، وحرفاً حرفاً، وقارن إفتراضاته مع أحداث التاريخ، فلقي تسلسلاً مقبولاً في النسب لأسماء الأعلام. وإفترض بأن الأسماء التي تقدّمها الكتابات هي أسماء السلالة الأخمينية، فقارن هذه الأسماء، مع عودة الى الوراء، بالأسماء التي كان هيرودوت قد ذكرها إبتداءً بكورش[١٢٥]. وبما أن الأسماء الأولى تبدأ بأحرف مختلفة، مع إنها ذات طول واحد، فهما كورش وقمبيز، وكورش وأحشورش[١٢٦] وكان التسلسل المتتالي ممكنا، فوجد حينذاك بأن الإسم الأول للكتابة مكوّن من ثمانية أحرف، وقارن ذلك بالأسم العبري لداريوش أو داريوس[١٢٧]

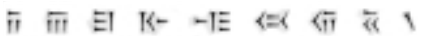

وأعطى لهذه الحروف قيمة إفتراضية

D A R H E A U SCH

وبدا له بأن إسم أحشورش Xerxes هو في المقدمة، لذا فهو مكوّن من الأحرف التالية:

KH SCH H A R A

وتمّ هكذا تحديد قيمة الأحرف.

(١٢٥) هيرودوت أو هيرودوتس (٤٨٤-٤٢٠ ق.م) مؤرخ ورحالة يوناني معروف.

(١٢٦) كتب هذا الإسم بعدة الأشكال، فهو بالفارسية Kshajarsha وباليونانية Artaxerxes وباللاتينية Assuerus عن العبرية، وبالعربية (أحشورش) أو أرتحشّا. أنظر الهامشين ١٢٤ و١٢٧.

(١٢٧) داريوس أو داريوش الأول ملك فارس (توفي سنة ٤٨٦ ق.م). والثاني (ت ٤٠٤ ق.م) إبن أحشورش الأول. والثالث، هو الذي إنتصر عليه الأسكندر الكبير. وقمبيز الثاني إبن كورش الكبير (٥٢٨-٥٢١ ق.م)

وبحث في الجملة الثانية عن كلمة بوسعها أن تدلل على مفهوم الملك، فكانت أحرف هذه الكلمة هي KH SCH A H وقارنها بالزندية المحكية سابقاً في البلد.

KH SCH A H I O H

ثم إفترض بأن الكلمة التي تسبق لفظة الملك هي لقب تكريمي، فقارن عندئذ أحرف اللفظة بأحرف لفظة داريوس، ووضع تحت هذه الرموز E GH R E

وبمقارنتها بالزندية، رأى بأن لفظة (أيكري EGHRE) تعني الكبير. وإستخدم هذه الطريقة، ففكّ هكذا، رويداً رويداً، الألفباء، بفضل الكلمات المعروفة والأحرف المكتشفة سابقاً.

لم يكن إكتشاف (گروتفند) في الحقيقة سوى فرضية، أعطتها إشتغالات (بورنوف)[١٢٨] عام ١٨٣٦ أسسا أشدّ رسوخاً.

وكان الكولونيل (رولنصون)، من البعثة الإنگليزية في فارس، يجهل أعمال (بورنوف) في فرنسا، و(لاسن) في ألمانيا[١٢٩]، لكنه إكتشف كتابات بيستون، وتوصل بأسلوب گروتفند عينه الى ألفباء مساوية لألفباء (لاسن)، مع فارق حرف أو حرفين.

ثم كان يجب البحث عن وسيلة لإكتشاف سرّ اليوميات الآشورية. فإن الكتابات الفارسية أعطتنا أربعين حرفاً مختلفاً، بينما كانت الكتابات الآشورية توحي بوجود ستمائة، بل إن (بوتا) لاحظ ستمائة وأربعين. وقد كانت كتابة حجر بيستون، الذي به إكتشف الكولونيل رولنصون نظامه الآشوري، إذا إنه يحتوي على نحو مائة إسم علم كان بوسعه قراءتها في الجهة المكتوبة بالمسمارية الفارسية، فلاحظ بأن رموزاً عديدة هي متطابقة، رغم ما فيها من إختلافات ليست بذات شأن[١٣٠]. وكان إسم

(١٢٨) Bournouf عالم فرنسي.

(١٢٩) Lassen عالم ألماني.

(١٣٠) فإن إسم سنحاريب، وأسماء العديد من الملوك، ليست مكتوبة بأحرف الألفباء، إنما بمقاطع =

الله مؤشراً عادة بعلامة أو مقطع، فكان ينبغي معرفة أي إله هو المقصود بالرمز، وكذلك بشأن إسم سنحاريب.

فإن الحرف – المقطع الأول هو ما يحدد الإله الذي لاتعزى إليه أية قيمة صوتية، وأمّا الحرف الثاني فيدلّ على الإله الآشوري (سين)، وهكذا بشأن أسرحدون[١٣١] وسردنابال[١٣٢] حيث يمثل الرمزان الأولّان ملك الآلهة: آشور.

فراودته فكرة القيام بمقارنة بين الفرس والميديين والأسقيطيين في عهد داريوس، كما فيما بين العرب والفرس والأتراك حالياً، حتى تمّ له التوصل الى عقد المقارنة بين اللغات، ولما ثبتت لديه الكلمات الأهم، لقي في الكلام شبها كبيراً بين العبرية والكلدانية القديمة.

إن كتابات خورسباد لم تنحت قط على الواجهات الخارجية للقصور، بل كانت في الداخل على طول الجدران، وعلى أجسام وملابس التماثيل، كما بين أقدام الحيوانات. لذا فإن الأقسام المكتوبة هي في حال جيدة من الحفظ. وهكذا هو الأمر بالنسبة لكتابات نينوى. فإن المعماريين الآشوريين المكلّفين بنقش الكتابات، كانت لهم عناية خاصة جداً لكي تبقى كتاباتهم، وتصان ضد عواهن الزمن. أمّا كتابات وان وبيستون فهي محفورة على أجزاء صخور مستوية متروكة في العراء، بعمق عشرة أو خمسة عشر سنتمتراً. وفي وادي بافيان، صنعت المنحوتات والكتابات على

= أو رموز يتطلب حلّها أسلوباً خاصاً. ويبدو بأن معظم أسماء الأعلام الآشورية كانت متكوّنة من لقب أو شعار أو إسم أحد الآلهة، تصاحبه كلمات كهذه: عبد، هبة، محب، كما لدى اليونان: تيوفيل، أيزيدور، أو لدى العرب: عبدالله، عبدالرحمن. وكان إسم الإله يؤشر عادة بعلامة أو مقطع. لذا كان ينبغي أولاً معرفة أي من الآلهة هو المعني بالرمز، كما في إسم سنحاريب فإن المقطع الأول يحدد الآله الذي لاتعزى إليه قيمة صوتية، أما المقطع الثاني فيدلل على الآله الآشوري (سين). وهكذا الأمر بشأن أسرحدون وسردانابال حيث يمثل الرمزان الأولان ملك الآلهة، آشور.

(١٣١) أسرحدون ملك آشور ٦٨٠-٦٦٩ ق.م.

(١٣٢) يكتب رحالتنا Sardanapal في مذكراته، ويقصد به آشور بانيبال (٦٦٨-٦٣١ ق.م) ابن أسرحدون، ويعتبر عصر آشوربانيبال عصراً ذهبياً. أو لعلّ المقصود بسردانابال آشور ناصربال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م). وأنظر الهامش ١٥٠. وليس رحالتنا الوحيد الذي وقع في هذا الخطأ، بل سبقه آخرون، والسبب إطلاق الأغريق خطأ إسم سردانابال على آشور بانيبال.

أجزاء من صخور محفورة عميقاً. وكان المعماريون، لحفظ الألواح التذكارية التي تحمل أسماء ملوك هم بناة الأبنية، يضعون تلك الألواح تحت ملاطات الدهاليز وفي سمك الجدران.

لا يسعنا أن نحمي أنفسنا من شعور ديني ونحن نجتاز هذا البلد الذي كملت فيه جميع أحداث التاريخ شبه الخيالية في العصور الأولى، إذ سرعان ما يشطّ بنا الخيال الى مشاهد مختلفة، ويبدو الناس الذين يتحركون أمامنا وكأنهم محافظون على النموذج، والعادات، والمسالك، كما لشخصيات الكتاب المقدس. فهل كانت حياة إبراهيم ويعقوب وعبيدهما وقطعانهما مختلفة كثيراً عن حياة هؤلاء اليوم؟ الخروف الكبير ذو الصوف الأبيض المسترسل بخشونة، والعباءة الواسعة المصنوعة من القماش عينه، معقودة فوق الرأس بمجموعة خيوط قطنية متهدّلة على الظهر من أعلى المقطع، هل هي مختلفة حقاً عما كانت عليه بالأمس؟ لقد كان هذا الوجود والواقع بعينه، بكل هدوء وبساطة.

نعود الى الرسالة (الدومنيكية). يعلموننا بأن مسيو ومدام سيوفي قد وصلا، لكننا نمتنع عن الذهاب لزيارتهما حالاً، فهما لاشك متعبان بسبب مراحل (السفر) المضنية، وسيكون من عدم اللياقة حرمانهما من راحة يمنّيان النفس بها.

١٣ تشرين الأول (أكتوبر)

نخرج باكراً لكي نلتقط بعض المناظر للموصل رغم فضول الكثيرين الذين يحيطون بنا. أثر عودتنا، نمضي لدى المسيو سيوفي الذي يستقبلنا بكل لطف، كما كنا نتوقّع. أصل مسيو سيوفي من دمشق. عمل ترجماناً مدة طويلة للشيخ عبدالقادر وكان له صديقاً. إنه متبحر باللغة العربية. يمتلك مجموعة مداليات من أغرب ما يكون[١٣٣]. نزور المطران (المونسنيور) بهنام بني، رئيس أساقفة السريان الذي يعود معنا لدى الآباء. هؤلاء السادة مهتمون بسفرنا، فيدور الحديث حول السفر من الموصل الى بغداد.

نخرج بعد الظهر بمعية مسيو سيوفي لزيارة جامع عجيب مدفون فيه السلطان

(١٣٣) راجع الهامش ٦١

لؤلؤ. المدخل وضيع، إلا أن الباب البرونزي ذو صنع جميل، وقد جعل الصانع إسمه بارزاً وسط أحد الأطر. الضريح في الداخل، من خشب مشغول، وغطاء من قماش أخضر، والحيطان عارية ما عدا شريط مرمري بعلوّ متر حول الجدران، يعلو هذا الشريط شريط آخر من مرمر أسود، عرضه عشرون الى خمسة وعشرين سنتمتراً، نقشت عليه آيات قرآنية من تطعيم مرمر أبيض[١٣٤].

نعود الى القنصلية، حيث يمسكني مسيو سيوفي على الغداء، ويريد أن يكرمني بهدية لطيفة هي كتابه حول ديانة الصابئة[١٣٥].

إن هذه العشيرة، أو هذا المذهب المعروف في الشرق بأسم اليوحانيين، والمعمدانيين، وحميريي سبأ، وخاصة المندائيين أو مسيحيي مار يوحنا المعمدان، إذ إنهم يدعون بأنهم تلاميذ القديس يوحنا المعمدان، من القدامى الأوائل. يعيشون على ضفاف دجلة، بين البصرة والكوت والعمارة. إنسحبوا عن فلسطين بعد أن طردوا منها. وديانة الصابئة مزيج غير منسجم من أفكار غنوصية وطقوس مسيحية، وهي تختلف عن المسيحية، لأنها تنسب أقوال المسيح وأفعاله الى يوحنا المعمدان.

هذه الديانة هي في الحقيقة خليط من اليهودية والنظريات المسيحية الكلدانية. واليهود والنصارى والصابئون هم أصحاب المذاهب الدينية الثلاثة التي أمر محمد (ص) أن تسامح وتحترم. يحافظ الصابئون على نظم صارمة في الدين، ويمتنعون عن الختان، ويقبلون بالمعمودية، إنما بإسم الله وحده، إذ لايعترفون بالإبن والروح القدس.

بوسع الزواج أن يكون في أي زمان كان، ومع أقرب المقرّبين من الأشخاص. يأخذون العريسين بإحتفال الى ضفاف النهر، وثمّة تتم كل المراسيم. الملاّ (الكاهن) والگينزفرا مرتدياً ثيابه الكهنوتية، وبيده الخاتم وعصا زيتون، يتلو الصلوات المفروضة، ثم يقوم بتغطيس الزوجة الشابة في الماء على ثلاث دفعات، ويجعلها في

(١٣٤) المقصود هنا مشهد الإمام يحيى أبي القاسم الذي بناه بدرالدين لؤلؤ سنة ٦٣٧هـ، وهو من المباني الأتابكية الجميلة، وقد جرت له صيانة جيدة مؤخراً.

(١٣٥) ينقل بنديه ما سمعه من المسيو سيوفي وقرأ في كتابه الذي سيذكر عنوانه في الهامش التالي. ويجب تصحيح بعض الإنطباعات بالرجوع الى الكتب المعروفة عن الصابئة المندائيين من وضع الليدي درووَر، وعبدالرزاق الحسني، وناجية مراني، وغضبان الرومي وغيرهم.

المرة الثالثة تمرّ من بين رجلي خطيبها، ويعلن عندذاك إتحادهما بنوع كامل وغير قابل للإنحلال.

لدى المسلمين، على الزوجين وحدهما أن يذهبا الى الحمّام غداة زواجهما. بينما يفعل ذلك جميع من في البيت، لدى الصابئة، أي كل من رقد حيث العريس، وكل من لمس الزوج أو المرأة، إذ عليهم جميعاً أن يقصدوا النهر ويتطهّروا بالماء. وهكذا يفعل الصابئي كلما أقترب من إمرأته.

ومن المحظور بصرامة لمس الميت. ولايقوم الصابئون بغسلهم بأنفسهم، ولايدفنونهم. ولكي يوفّقوا بين المحافظة على الشريعة ومقتضيات الواجب، توصّلوا الى هذه العادة غير المستحبّة: حين يفترض بأن ساعة النزاع قد أزفت، يعرون المدنف من ثيابه، ويقومون بغسله، ويلبسونه أفخر ثيابه، ويلفّونه بآخر شرشف له، ثم في حفرة القبر ويتركونه يموت. وأهله وأصدقاؤه حوله يصلّون ويلولون حتى يلفظ النفس الأخير، فيطبقون الحفرة وينسحب الجميع. وينبغي حسب الصابئة، أن تمرّ أربعون يوماً لكي تصل النفس الى الله، لذا فإنهم خلال هذه المدة يقيمون المآدب، صباحاً ومساءً، في بيت المتوفّى على نية الميت، يشاركهم فيها ذووه وأصدقاؤه الحميمون[١٣٥*].

كتابة الصابئة هي السريانية الجليلية. ولغتهم ضرب من السريانية المختلطة بكلمات فارسية كما باللغة الكلدانية القديمة[١٣٦]. لن ألحّ أكثر بشأن هذا المذهب الذي يعدّ الآن نحو خمسة وعشرين الى ثلاثين ألف نسمة.

مسيو سيوفي، مع إنه شاميّ، يقوم بأعباء القنصلية الفرنسية خير قيام. الغداء محترم قدر ما بوسعه أن يكون وهو بعيد عن موارد بلادنا. الخمرة وحدها ليست بجيدة. إنهم لايعرفون أن يصنعوا الخمر من العنب الطريّ، لأنه لايختمر عندهم، لذا

(١٣٥*) مبالغات وإنطباعات خاطئة يسجلها بنديه، ينبغي تصحيحها على ضوء المراجع المذكورة في الهامش السابق. ومعلوم بأن عادة غسل الموتى قديمة ومعمول بها حتى اليوم في بعض الديانات. وما يحكيه بنديه عن تغطيس العروسين في الماء، هو رتبة العماد أو طقوس الغسل المعروفة لدى الصابئة، وقد يستعاض عن ماء النهر الجاري بماء الحوض. وعادات الغسل والتطهير معروفة كذلك في ديانات مختلفة.

(١٣٦) يذكر الرحالة كتاب المسيو سيوفي عن الصابئة: Siouffi, Etudes sur les Soubbas

يصنعونه من الزبيب، وكل منهم يعمل لنفسه الكمية التي تكفيه للإستهلاك.

تسلمت أثناء العشاء البرقية التي إستمرت ثلاثة أيام للوصول من باريس. من الكلمات الأربع، إثنتان لم تكونا واضحتين، وبما إنهما كانتا بمثابة جملتين كاملتين، لم أتمكّن من فهم أي شيء. وهذا ما يحدث مراراً. وفي التلغراف عادة خاصة، دفع (الإجرة، الضريبة) بالنقود الفرنسية، وعليَّ أن أدفع بحساب النابليون[١٣٧] أي ذهباً كما يقال هنا. الموظفون لايعرفون بعد الفرنك ولا اليَن أو الدولار، ويقومون بحسابات معقدة جداً لكي يحتسبوا القائمة بالقروش، إذ أنهم لم يروا البتة فرنكات فضيّة، ولايقبلونها عوض النابليون. ترى لماذا لاتستعمل تركيا عملتها الخاصة بها؟

١٤ تشرين الأول (أكتوبر)

نقضي الصباح بالحديث مع الآباء الذين يتقبلون عدة زيارات، منها زيارة المطران (المونسنيور) بهنام بني، الذي إذ علم بسفرنا، أرسل لنا أربع بطّات حسنة لكي نضيفها الى مجموعة الدجاج التي نحملها في قفص خشبي.

وجاء مسيو سيوفي لكي يدعونا الى الغداء في القنصلية بصحبة الأب دفال. فتحدثنا عن سفر مدام سيوفي القادمة من دمشق. كان يرافقها أخوها مسيو دومنيك، والطريق عبر الصحراء طويل وخطر، والحماية ضرورية جداً. الماء شحيح في السهول المترامية الأطراف من بادية الشام، بحيث قد لايصادف المرء خلال يومين أو ثلاثة ماء. لكنه طريق ذو أهمية، إذ يمرّ المرء فيه بتدمر، قرب أطلال باميرا[١٣٨] ومن السهولة هنا بمكان، التعرّف على سبب إختفاء الماء تدريجياً، فإن المؤلفين القدامى يتباهون بمياه تدمر الجارية وحدائقها ورياضها، بينما قد إختفت الآن السواقي والبساتين والمدينة، وفي حياض الهيكل العظيم، هيكل الشمس ذي الأعمدة الألف، لم يبق سوى مجموعة وبضعة بيوت، ويقوم منزل حقير وسط الأخربة لكي يحمي نفسه من البدو: هذا هو كلّ ما تبقى من عظمة مدينة زنوبيا (الزباء).

(١٣٧) Napoléon قطعة ذهبية ذات قيمة عشرين فرنكا، تحمل رسم نابليون الأول أو الثاني.

(١٣٨) تدمر أو باميرا Palmyre مدينة في بادية الشام. كانت عاصمة الزباء (زنوبيا) ومحطاً تجارياً للقوافل.

البلد جاف جداً، بحيث يتحتم، للوصول الى الدير (دير الزور) على الفرات، إن يتخذ المرء مؤونته من الماء من آبار تدمر الفقيرة. والدير موضع عسكري تركي. المدينة كبيرة نسبياً، يزرع فيها الرز والقطن. ومن الدير الى سنجار، مسافة سير يوم من الموصل. هناك مضى مسيو سيوفي لملاقاة زوجته. إنها الطريق التي تسلك للذهاب من الموصل الى ميناء بيروت. غير إنه للوصول الى أوروپا، يتم الإبحار عادة من ميناء الإسكندرية لإجتياز برية دياربكر وأورفه، حيث توجد بحيرة إصطناعية جميلة تسمى عين إبراهيم، يزعمون بأن إبراهيم، إذ كان عائداً من إحدى الحملات، ولم يكن يعرف ما يصنعه لجنوده، سأل الله أن يتصرف كما يشاء، فحولهم الكائن الأسمى الى أسماك (شبابيط)، وصنع هذه البحيرة ليكونوا فيها[١٣٩].

بعد الغداء، نخرج مع السيد (مسيو) دومنيك للقيام بجولة في الأسواق. يشتغل الباعة أمام حوانيتهم الصغيرة والمظلمة وهم ينتظرون الزبائن وسط صخب وجلبة المارّة، ويعملون بصبر. وأحدهم يطرّز الأقمشة، وثانيهم يثقب عيدان الغلايين، بينما ثالث يشعل الموقد لكي يعمل في الجلد مساء.

إنه حيّ مملوء بالأسكافيين والخفافين، جميعهم يصنعون الأحذية الحمراء[١٤٠]. بعيداً عنه، نلقى سوق آنية الطين والفخار[١٤١]، ثم يأتي باعة الأقمشة، معظمها أوروپية. والقصابون في حي آخر، وكميات الذباب كبيرة الى درجة أن اللحم يبدو مغطّى ببقع سوداء ضخمة. وعلى مبعدة من ذلك، في شارع آخر، نلقى الصاغة وهم منحنون فوق أفرانهم الصغيرة، ينفخون فيها، ويطرقون صفائح الذهب والفضة.

بعد قليل من المسير، نصل الى بيت التاجر عبدالله شكر الذي، بضمان من مسيو سيوفي، سوف يدفع لنا بوليصة (كمبيالة) ألف فرنك حتى بغداد.

هذا المصرفي المحترم، بعد أن يأخذ حسمه، يدفع لنا ليرات تركية، وروبيات هندية

(١٣٩) المقصود به إبراهيم الخليل أبا المؤمنين، وقصته معروفة في الأسفار المقدسة. (لكن الذي نعرفه أن إبراهيم عليه السلام لم يكن غازياً!- الناشرون)

(١٤٠) منها على شكل أحذية خفيفة عادية، ومنها على شكل الجزمة، وتسمى الأولى في الموصل بالمشاية.

(١٤١) إنه سوق الخزافين والفخارين المعروف في الموصل بسوق الكوازين. وأنظر الهامش ٨٤.

مقبولة هنا، وعملة غريبة جداً هي قطع تحمل صورة تيريزا الأم بقيمة خمسة فرنكات تقريباً، هذه القطع نافذة في أوروپا ماتزال مستعملة في حوض البحر المتوسط، من مدغشقر وزنجبار وزنزيبار وعدن وسواحل مصر وجزيرة العرب وبغداد وحتى الموصل، بل إنهم مايزالون يضربون منها في النمسا لكي تستعمل هنا.

فور عودتنا، إذا أعلم بأن بريداً يسافر الى بغداد يوم غد عن طريق البرّ، وسيصل قبلنا، أكتب الى قنصلنا مسيو دي سارزيك[١٤٢]، ولو أنه قد أنبيء بوصولنا من قبل المونسنيور ألتماير ورسائل أحد أصدقائي من پاريس، لأنه من معارفه. لكني كنت أريد تجنّب مفاجأة كالتي حصلت لي مع الآباء (الدومنيكيين). وأرجو مسيو دي سارزيك أن يمنح كل الثقة لمراسل المصرفي إذا ما جاءه وسأله معلومات بشأن إمكانية الدفع من قبلنا، وبما إني لاأريد التطفّل وسؤاله الضيافة، رجوته أن يؤجر لنا بيتاً يمكن أن نحلّ فيه لدى وصولنا.

١٥ تشرين الأول (أكتوبر)

حالما ننهض، نمضي لمعاينة الكلك. لقد أنجز نجّار الآباء (الدومنيكيين) المأوى الصغير الذي أردنا صنعه. لدى عودتنا لدى الجماعة (الدير)، نهتم باللوازم والإستعداد للسفر.

كل شيء يتوفر في الكلك: فواكه خضراوات، فحم، أفران، أقفاص بط ودجاج، خبز، رز، تبغ، شاي، مصابيح، شموع، خراطيش والخ.

غير إنه ماتزال ثمّة أمور صغيرة ناقصة، كما أن تشييد القارب نفسه لم يكتمل بعد، بحيث إننا نخشى بأن لانتمكن من السفر مساء اليوم. ويزداد هذا القلق البسيط، لكَون الغد جمعة، والمسلمون لايسمحون أن نبتديء طريقنا في يومهم المقدس، كما هو الأحد لدينا. إلا أن مسيو سيوفي أكد لنا بأن الجندرمة (الشرطة) دقيقون في مواعيدهم. وقد حجز الأب دفال رجلين يجذفان ليقودا القارب، بحيث يجعلانه في وسط النهر دائماً ومع إندفاع المجرى، إنهما الكلاّكان.

(١٤٢) E. de Sarzec أرنست دي سارزيك (١٨٣٧-١٩٠١) نائب قنصل فرنسا في البصرة، وقنصل في بغداد، نقب في (تلو) في السنوات ١٨٧٧-١٩٠٠.

أحزم قدر ما أستطيع أغراض المجاميع من جماجم وألبسة وأدوات منزلية، أملاً في التمكّن من إرسالها من بغداد الى متاحفنا. أمّا بالنسبة لأمتعتنا الشخصية، فإننا سنجمعها كيفما كان ساعة الرحيل.

يأتي بعد الغداء، ونحن داخلون، بعض الأشخاص لرؤيتنا ولتوديعنا، من ضمنهم السيد شيستر[١٤٣]، وهو مهندس بافاري موفد الى الموصل لتشييد الطريق. المسكين هنا منذ سبعة أو ثمانية أشهر، لقد كان في البداية صاحب ضمير ورجلا شغولا، حاول أن يقوم بالمهمة التي أوفد من أجلها، فكان يكتب برقيات ورسائل الى القسطنطينية لكي يرسلوا إليه ما هو ضروري لعمله، لكنه لم يتسلّم أي جواب. فأشار عليه أحد أصدقائه إنه إذا ما أستمر في إزعاج الحكومة، فإنهم سوف يعملون على إستبداله. «إنك لست هنا إلاّ للعرض فقط، فإن تركيا تريد أن تظهر نفسها بأنها تهتم بأمر الأعمال. لك أن تحصل على مرتبك وتترك الحكومة بسلام. إن الموظفين قد إستبعدوا الأعمال التي تفكر بالقيام بها»[١٤٤]. منذ ذلك الحين لم يعد يجسر أن يتفوّه بشيء.

نمضي الى القنصلية للمرة الأخيرة لتقديم إحتراماتنا للمسيو سيوفي شاكرين قنصلنا المفضال. ونعود الى مسكننا في الساعة الخامسة مساء. كل شيء جاهز تقريباً. نحتاج الى عشرين حمّالا لحمل معدّاتنا وصناديقنا والأمتعة الى القارب. قوّاص القنصلية وقواص الدير (الجماعة الرهبانية) يشقّان الطريق أمام خدمنا والجندرمة يسهرون على القطيع الغريب من الحمالين المحملين بأمتعتنا المتنوعة بشكل غريب.

(١٤٣) Bavarie بافاريا، مقاطعة في جنوب ألمانيا مركزها مدينة ميونيخ.

(١٤٤) بوسع هذا أن يبدو غريباً إذا ما قسناه بنزاهة موظفينا من الأوروبيين. لكنني أستعير موضوعين من رحلة مسيو ديلافوا (Dieu Lafoy):

«موظف صغير حكومي، بنى مبنى عاماً، بتعاون مع فرسان، ثم حرقه، وشيده من جديد، ولم يوجد هذا المبنى إطلاقاً!

وليس المسؤولون العسكريون بأقل من ذلك: لقد قالوا مؤخراً بأن مجموعة جنود قد هلكوا في كمين، مع إن هؤلاء لم يتركوا بغداد البتة، وإنما أخترعت هذه الخسارة الخيالية لتصحيح حسابات خاطئة وتغطية نفقات خفية في الأسلحة والعتاد، ولإعادة جنود الى بيوتهم، فكان لابدّ للضباط من تغطية ما لم يكن صحيحاً» (الرحالة).

إثنان من الآباء الدومنيكيين يرافقاننا حتى القارب. نستغرق نحو عشرين دقيقة لإجتياز المدينة والوصول الى النهر حيث القارب. علم فرنسي صغير يرفرف في أعلى الخيمة. ويجب تنظيم كل شيء ووضعه في مكانه، لأن المساحة ليست كبيرة. نترك الضفة في الساعة السادسة مساء.

من الموصل الى بغداد*

من ١٥ الى ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر)

الكلك، وضعه، الطريق البرّي من الموصل الى بغداد. عيون نفط (قار). حمام علي (حمام العليل). نمرود. التنقيبات، القصور المطمورة. حلاقة الرجال، برودة الليالي. عبور شلال، ترجماننا الجديد. مصبّ الزاب الكبير. جنود طهاة. هجوم ليلي. قلعة الشرقاط. عودة (حملة) العشرة آلاف. حقول على ضفاف دجلة. كيف تحفظ الغلاّت. جبل حمرين. زورق بخاري فاشل. تكريت. سعر خروف. أمام - دور (الدور). سامراء. القفّة. قوافل (كروانات) فارسية. أشجار النخيل الأولى. تل محاسي. سنديا. حويش. البساتين. الكاظمية (كاظمين). الوصول الى بغداد.

المخر يسير ببطء، فإن التيّار وحده يدفعنا، ومجرى المياه ضعيف جداً، بل أن ريحا خفيفة مضادّة، تتركّز على الخيمة، تؤخر مسيرنا. والرجلان الجذّافان لايتمكّنان أكثر من المحافظة على القارب وسط التيار، إذا أن ضربات المجذاف لايمكنها أن تجعله يتقدم، فيكون من الصعب أن نقطع كيلومتراً خلال ساعة. والليل قد خيّم عاجلاً، إلا أن ضوء القمر يسمح لنا أن نطيل سيرنا قليلاً من الزمن. وبما إنه لايستطاع المخر ليلاً من دون أخطار، بسبب صخور موجودة في باطن الماء، وبسبب التيارات والأمواج السريعة، لذا توجّب علينا التوّقف على حافة النهر بإنتظار النهار، وقد كنت أريد أن أخيّم في أبعد نقطة ممكنة عن مواضع المدينة غير الآمنة كثيراً، رغم أن علينا عندئذ أن نخشى مباغتات الأعراب.

يتكوّن كلكنا من مستطيل ذي ثمانية أمتار وعشرين سنتمتراً طولاً، وعرضه خمسة أمتار وأربعون سنتمتراً، وهو من قسمين منفصلين بجذوع أشجار مشقوقة الى

* الفصل التاسع من الرحلة.

شقّين، ومربوطة بحبال وأغصان. وتحته مائة وخمسون قربة منفوخة هواء ومشدودة بالطريقة عينها، وهي هذه التي تسمح بأن تطفو هذه الأرضية المتحركّة فوق الماء. وتقع الخيمة في الوسط، وقد شئناها مكوّنة من ثلاثة أمتار وعشرين (طولا) ومترين وخمسة وأربعين (عرضاً)، وهي من لوح خشبي منحوت بشكل بسيط، تمتدّ فوقه لبّادات في الأسفل وقماش في الأعلى. والقسم الأعلى مكوّن من أطر (ملابن) بوسعها أن تفتح لكي تسمح للهواء بالدخول. والباب في الجهة المعاكسة للفسحة المخصصة للناس.

وضعنا منضدة في الداخل، وحولها من كل الجهات أسرّة المخيّم، وأمتعتنا محيطة بنا، ما عدا الصناديق التي رتبّناها خارج الخيمة. ورجالنا خلف الخيمة، والجذّافان جالسان على الأكياس، وقد أقعى الجنود يقضون وقتهم في الأحلام والتدخين، ولكي نستعمل تعبير البلد فإنهم على (كيفهم)[١٤٥]. الفرن على مقربة منهم، في الزاوية اليسرى. إنه صندوق حديدي عرضه وعمقه عشرون سنتمتراً وطوله أربعون، وعمقه غير مثقوب لتجنّب إضرام النار في الكلك ولعدم إحراق القرب.

ليست المجاذيف سوى عصا طويلة مستقيمة، كقطعة خشب أفقية مصنوعة نحيفة في الطرف الذي يمسك باليد، وفي الطرف الآخر قطع خشب طولها عشرون سنتمتراً، مشقوقة الى قسمين موضوعين بشكل معاكس بطول متر تقريباً، تستخدم كألواح.

تركنا في الموصل ترجماننا القديم سيمون. لقد جاء لتوديعنا حتى القارب. وعليه أن يقصد وان مع أول قافلة تتوجه الى هناك[١٤٦]. لقد إستعضنا عنه بمستخدم في مطبعة الدومنيكيين، أبوه في بغداد، كان بودّه أن يرى مؤلف هذه اليوميات أكثر من أن يلقى له عملاً، إذ أنه يتوقّع أن يجتني من ذلك أمراً عظيماً بصفته يعرف

(١٤٥) مرة أخرى يعبر بنديه عن هذه الحال التي طاب له أن يصفها ويكررها عدة مرات بطريقته الخاصة. أنظر الهامش ٨٥.

(١٤٦) لقد تسلمت منذ وصولي رسالة من قبل مترجمنا التاعس. لقد سافر الى وان مع أول قافلة عبر طريق سعرت وديار بكر، فقبض عليه في المدينة الأخيرة كجاسوس روسي، وقضى ثلاثة أيام في السجن، وكان عليه أن يحتمل عذابات الدنيا لكي يدلل على هويته، ولكي يخلّى سبيله (الرحالة).

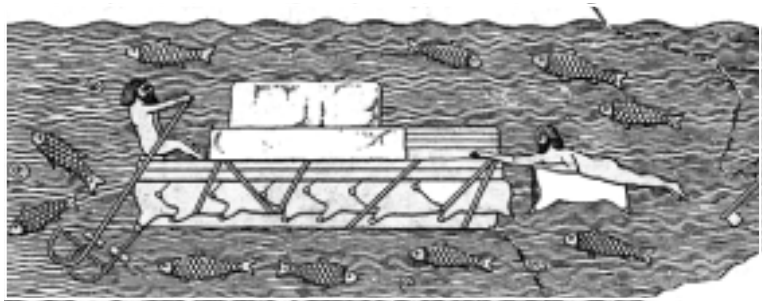

الكلك في الرسوم القديمة

الفرنسية. وإسمه بطرس.

لا يسمح لنا الظلام بالإستمرار، لذا نتوقّف على حافة النهر. تنفعنا للأرساء صخرة كبيرة نشدّها بحبل قنب. أترك للجندرمة تدبير الأمر كما يشاؤون بشأن نوبات الحراسة. كنت قد وفّرت لهم التبغ، الى جانب الرز والرقّي، فبدا إعجابهم بتلك المفاجأة. ننزوي، بعد العشاء في خيمتنا لقضاء الليلة.

طريق دجلة خطر بالنسبة للمسافرين، لأن النهر نقطة لجوء طبيعي للأعراب وقطّاع الطرق، والماء ضروري للعيش، والطريدة متوفرة، فيا لتعس القارب الذي لايحترز منهم. إن الأعراب يشقوّن القرب بخفة لإغراق القارب وسلبه.

وليس الطريق البريّ من الموصل الى بغداد بأفضل، ولا أشدّ ضماناً، فهو يبتعد عن حوض النهر لكي يتجنّب قبائل البدو المتهوّرة، ويقتفي أذيال جبال كُردستان، وغالباً ما تقطعه غدران يغذّيها ذوبان الثلوج، تؤخر القوافل عدة أيام، ويغدو أشدّ خطورة بسبب إهمال الحكومة التركية، والعديد من القرى التي كانت تقدّم سابقاً المأوى والمورد للمسافرين وفقاً لإحتياجاتهم، هي الآن مهجورة[١٤٧].

ثمه قانون تركي قديم هو قانون تحترمه معظم العشائر التتارية يجعل الحكومة المحلية هي المسؤولة عن السرقات المسلّحة التي ترتكب في طرق المواصلات الواقعة

(١٤٧) لاتسلك هذه الطريق الآن سوى القوافل التي تصعد شمالاً، لأن دجلة ليس صالحاً للملاحة والسير بمعاكسة التيار. يستخدمها البريد لأنه يتمكن من السير براً بشكل أسرع، وتمرّ هذه الطريق بأربيل، وآلتون كوپري، وكركوك، وكفري، وبعقوبة (الرحالة).

كلك الرحالة بنديه

تحت إدارتها. غير أن هذه المسؤولية قد ألغيت، فلم تعد الحكومة التركية تمنح أي تعويض لحماية المسافر والتاجر المحلّي، لذا فمن العبث الإستنجاد بالحكومة أو بالمحكمة ضد القبائل البدوية التي تتحدّى السلطان، بل إنها غالباً ما تكون بالإتفاق مع الحاكم والوالي.

ليست طريق الصحراء أطول وأفضل بكثير، ويكفي لجعلها آمنة بما فيه الكفاية، وضع نقاط سيطرة جنود عبر النهر، وشقّ طريق خشن للعربات، وتشجيع ولو بسيط لقبائل الفلاحين التي قد تأتي لكي تسكن في الضفاف. إنه الضمان الأقل توفيراً. غير أن إرادة الباب العالي السيئة، وموقفه العدائي ضد أية محاولة تقدّم، يمنع الشركات الأجنبية من إنشاء خط سكة حديد يقود بسرعة الى الهند. والخليج الذي يضمن القوارب بشكل كبير، وإن خطاً حديدياً سيسهل كثيراً الطريق من البصرة الى بغداد فالموصل، وحلب، والأسكندرونة، وقد حاولت بعض القوارب البخارية صعود الفرات، إلا أنها عزفت عن إستمكال الشوط[١٤٨].

الجمعة ١٦ تشرين الأول (أكتوبر)

تشرق الشمس الساعة السادسة، فنسعد جداً، فقد كان الليل بارداً، حتى إننا

(١٤٨) من الملاحظات العديدة التي يفيدنا الرحالة بها تعمّد الدولة العثمانية في إهمال بلادنا فهي لاتبغي تقدمها، ولاتقوم بأي عمل بنّاء، ولاتشجع أية مبادرة خيّرة. راجع الهامش ٥٩.

لجأنا الى معاطفنا، بل إن المحرار قد إنخفض صباحاً حتى درجة ٤ فوق الصفر، بينما هو يتخطّى الثلاثين نهاراً.

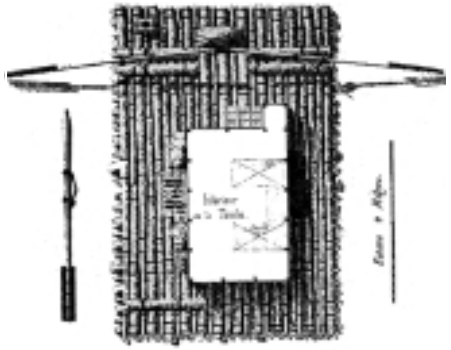

مخطط الكلك

يتقبل دجلة في مسيره في بلاد ما بين النهرين، في أماكن عديدة، عيون نفط (قار) تنبع على طول ضفافه. العديد من هذه العيون كبريتية، ويعزى الى بعضها شفاء الأمراض.

حمام العليل (حمام علي)[١٤٩] التي نصلها في الساعة التاسعة، قرية صغيرة تسمّى هكذا بسبب عيونها. نتوقف لزيارتها. أثناء ذلك يشرع يوفان بذبح ما في قفص الدجاج.

تتكون هذه القرية المتهدّمة من بضعة شوارع بيوتها متهدمة، بدون سقوف، لاتتكون إلا من جدران حجارة مرصوفة بدون ملاط، يأتيها المرضى لكي يخيّموا فيها أثناء الموسم المعتاد. نصل الى العين المنبثقة من صخرة. إنها تقطر نقطة نقطة في حوض أسود فيه إنعكاسات مشعّة ذات منظر مقزز. نلقى بعض التعساء يستحمّون فيها. أحدهم مخيف جداً، مبتلى بداء الخنازير بدرجة مستفحلة، ليس جسمه سوى هيكل عظمي متلبّس بجلد، تتكاثر فيه الآكلة، ولم يعد لرجليه ويديه شكل. يدعونا الجندرمة الذين يرافقوننا الى أن نتحسس الماء للتأكد من حرارته. لمن نافلة القول التأكيد بأننا نمتنع، فإن المنظر الذي أمام أعيننا فظيع.

نلاحظ أثناء سيرنا، الى اليمين، تلاً صغيراً يبدو أنهم بدأوا فيه ببعض الحفريات،

(١٤٩) يكتبها بنديه بحسب اللفظ الشعبي Hammam - Ali: بلدة قرب الموصل، وعينها المشبعة بالقار معروفة، تصلح لشفاء الأمراض الجلدية وغيرها.

غيـر إننا لانلقى أي أثر للأطلال. نستـعـجل الخطى للوصول الى قاربنا، ويتـعب الجندرمة كثيراً في صدّ بعض الأفراد من الصعود إليه.

الضفاف مستوية ومملّة. إنها الصحراء، وثمّة أحياناً بعض التلول، من اليمين ومن اليسار، شبيهة بتلك التي تغطّي نينوى وخورسباد. نستلقي فوق أسرّتنا وندخّن تاركين العنان لأنفسنا لإسترخاء عذب، يساعدنا المجرى الهاديء على ذلك.

بعد نحو ساعة نصل الى قرية صغيرة، منها نتمكن من الوصول الى النمرود، والى الأطلال الشهيرة لقصر سردانابال[١٥٠].

أترك يوفان في الزورق والجنود والكلاكين، وأمضي الى القرية يرافقني هاملن وبطرس وأحد الجندرمة. أظن بأن أسلحتنا المحمولة بشكل بارز توحي الى السكان بخوف مقدس، إذ يبدو إستعدادهم غير جيّد تجاهنا[١٥١]، ورغم ذلك أسأل أن يعيرونا جياداً تحملنا حتى النمرود. المسافة قصيرة، نحو ألف أو ألف وخمسمائة متر، غير إن الحرارة محرقة.

ودجلة، كما قلت، من الأنهر الأشد مزاجاً. لقد غيّر مجراه مراراً بمسافة كيلومترين أو ثلاثة. ففي الزمن الذي كان القصر فيه مأهولاً، كان يجري بالتأكيد تحت أقدام الهضبة التي تخفي طيّها الأطلال.

نتجوّل حول هضاب التراب الذي يغطّي تنقيبات الحفريات السابقة المهملة، مبتدئين بالهضبة الكبرى، الشمالية الغربية التي يفترض إنها تضمّ قبر سردانابال[١٥٢]. نميّز في الدهاليز وفي المقاطع التي تحدّها من جهة ومن أخرى، جدرانا صخرية ذات سمك غير إعتيادي، محفورة من مسافة الى أخرى، بما يشبه مداخل مجازات قد بوشر بفتحها، إلا إنه لم تتم زيارتها وإكتشافها. من أعلى

(١٥٠) إتخذ شلمنصر الأول مدينة كالح – نمرود مقراً لحكمه. أمّا القصر الشمالي الغربي فقد بناه آشور ناصربال الثاني (٨٨٣–٨٥٩ ق.م) ولعله المقصود هنا بسردانابال. وتقع (نمرود) على بعد ٣٧ كم جنوب غربي الموصل، جرت فيها إكتشافات جديدة في السنوات الأخيرة، وهي إحدى العواصم الآشورية الأربع. راجع الهامش ١٣٢.

(١٥١) تحفّظ آخر ليس في محلّه، وتوجّس لا سند له، يبديهما رحالتنا المتغطرس.

(١٥٢) بوسع القاريء أن يتابع جولتنا على الخارطة المرفقة بالرحلة (الرحالة).

الهضبة العالية، يمكننا إحتواء مجمل الخرائب.

إنها تشغل مساحة تقرب الى الستمائة والخمسين متراً طولا، من الشمال الى الجنوب، وثلاثمائة وخمسين متراً عرضاً من الشرق الى الغرب. وقد كانت ترتفع فوق هذه الساحة أرضية مشيّدة بالطابوق والتراب، محاطة ببناء صلب. وبوسعنا أن نميّز بقايا تسعة أبواب مختلفة. ويقوم تحت أقدام الناووس هيكلان مخصصان للآلهة الآشورية.

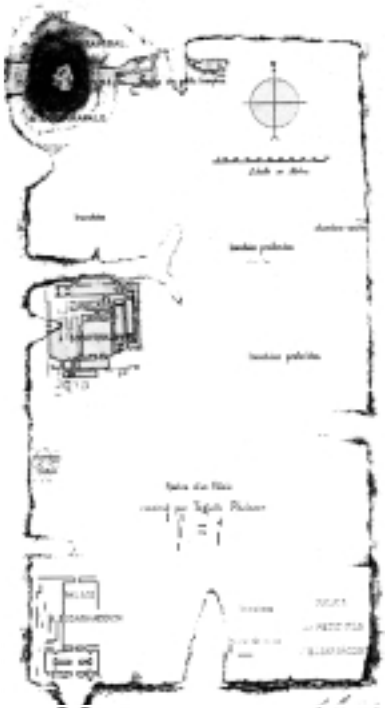

خارطة نمرود

إذ نترك الناووس ونتوّجه الى الجهة الغربية، نجتاز وادياً عميقاً، يبدو إنه موقع درج، أو إنه طبقة منحنية تقود الى النهر. ثم نصادف أطلال القصر الرئيسي الذي كان مرتفعاً عن دجلة بأرضية أشبه بالسطح لقد كان مدخله، حسبما يقول لايارد، بإزاء الناووس، أي بإتجاه الشمال، وكان المدخل مزيّناً في السابق، كما في قوينجق، بالعنقاء وبثيران مجنحّة ضخمة. لقد تهدمت بعض هذه الآثار المدهشة، وقد تمكّنوا من حمل بعض البقايا الى لندن.

يمثل الخراب هنا طابعاً متميزاً، فالحجارة المطروقة تنسحق ثم تتفتت هشيماً، وكأنها قد أخضعت لمفعول النار ثم الماء، هكذا تبدو للعيان. ويبدو التأثّر شديداً في بعض الأماكن، بحيث أن المعالم البارزة هي وحدها الظاهرة فيها.

نلقى في حقل الحجارة حفراً (ثقوباً) كانت تغور فيها قضبان الحديد، وفي الزوايا

آثار الكلاليب التي كانت معلّقة بها، وكثيراً ما لاحظنا أطراف الزوايا اليمنى مسدودة بحجر منحوت ومثلّث الزوايا، وتبدو منحوتات كثيرة مكسورة بنوع متعمّد. لم يقم البابرة (البرابرة) بهذه الأعمال الهمجية، بل هم الإنكليز أنفسهم ابان تنقيباتهم، فهم إذ لم يتمكّنوا من حمل كل ما كشف النقاب عنه، بدلاً من أن يتركوا لآخرين فرصة الإنتفاع منه، فضلّوا سحق قطعة مهّمة سحقاً[١٥٣].

والإنكليزي لايفقه القطعة الفنيّة، ولايثمّنها، وإذا ما حاول أن يملأ المتاحف، فهو إنما يفعل ذلك بروح التقليد والتعالي[١٥٤].

نستمرّ دوماً في المسير بالإتجاه عينه، فنلقى منحدراً آخر شبيهاً بالسابق، مما يدلّ على حافات السطح. وثمّة أثر لدرج آخر. ولطابق منخفض، حتى نبلغ الزاوية الغربية حيث يرتفع قصر أسرحدون. لقد أتلفته النار بشكل كامل، بحيث بات من الصعب جداً إيجاد الخطوط العريضة له وتركيب خارطته. لقد كان قصر أسرحدون أقل علواً من قصر حفيده الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، حيث الأطلال هي أقل مرئية. وقد كان مفصولاً بمنحدر آخر، أي بطبقة منخفضة ودرج أشدّ عرضاً من الآخر، لذا فهو بمثابة المدخل الرئيسي للأرضية العامة.

آزاء هذه المداخل، ووسط الأرضية، تقوم بعض أطلال بناية منسوبة الى تغلتبلاسر، قد جرى هدمها، حسب لاياراد، من قبل أسرحدون الذي إستخدم موادّها لتشييد قصره.

ليس ثمّة أي أثر للتحصينات ولا للأسوار من الجهتين الشمالية والشرقية، ويبدو إنه لم يكن للواجهة الشرقية، سوى مدخل واحد. لقد كانت المباني بدون حماية من

(١٥٣) يلاحظ مسيو دي ريفوار de Rivoyre في رحلته الى بابل أعمال الهمجية عينها، فيقول: «حين كشفت الحفريات في الحلة (بابل) عن بعض الأفاريز الثقيلة جداً، وعن بعض الألواح الجدارية الضخمة لكي تغلف وترسل الى لندن، أتعلمون ماذا حدث؟ ليس أبسط من الأمر التالي: لتعوّدهم على شبح التنافس مع جيرانهم، وعلى التعالي المقصود، وخشية أن يسيطر غيرهم عليها (على الآثار)، يسحق منافسونا (يقصد بهم الإنكليز) اللقى بكل بساطة وبالمطرقة، في مواضعها عينها، فإن لم يكن لهم أن يحصلوا عليها هم أنفسهم، فلا ينبغي أن يحصل عليها الآخرون! (الرحالة): John Bull, D. de Rivoyre, Les Vrais Arabes et Ieur pays.

(١٥٤) مبالغة أخرى لرحالتنا، فهو فرنسي لايحب الإنكليز.

مشهد من نمرود

هذه الجهة. ونلقى في تحصينات التراب التي كانت تشكّل سور الحماية لمدينة نمرود، آثار نحو خمسين برجاً في الواجهة الشمالية، وفي الواجهة الشرقية كذلك، لكنها هنا أقلّ وضوحاً. أما جنوباً فقد إمّحى أثر التحصينات تقريباً، غير إنه من المستبعد أن يكون دجلة قد أغرقها، لأن مستوى النطاق هو أعلى من حوض النهر. ولعلّ الحفرة العميقة المملوة بالماء (الخندق) كانت تستخدم للدفاع.

نعود الى الهضبة الرئيسة، حيث ضريح سردانابال. وبينما نحن نتجوّل في المعبد الصغير الواقع تحت النهايات الشرقية من الهضبة، حصل إنهيار أرضي كشف النقاب عن حجر بدا لي غريباً، طوله سبعون سنتمتراً وعرضه خمسون، وقد نقش عليه مخطط مذبح مثلّث الأقدام شكلاً، يعلوه رسم أحد الآلهة، ومن كل جهة شخصان، لاشك إنهما كاهنان يمسكان بسمكة، وفي الأسفل أربعة أو خمسة أسطر من كتابة بالأحرف المسمارية. سمك الحجر ثمانية سنتمترات تقريباً، دون إحتساب نحت الأشكال، وجسم الحجر أملس، أما المنحوتات فشديدة الوضوح، وعندما قلبنا الحجر، رأيناه منحوتاً أيضاً. لقد كان السطر الأول مكوّناً من زخرفة بيضوية الشكل فيها أحرف سحرية محفورة بشكل مقعّر، تحتها سطر يمثّل أشخاصاً ونحو عشرة أسطر مكتوبة بأحرف أدّق مما على الوجه الآخر. إستغرقنا ساعة في تنظيف الحجر. وكان رئيس القرية يريد في باديء الأمر منعي من حمله، إلا أن بعض الهدايا ما عتمت أن بددت تردده، بل راح يصرّح بما إني لن أتحدث بسوء عن محمد (ص) فإنه مستعدّ لكي يقدّم لي العون. وقد كان النقل والإبحار شاقّين، إذا يتطلّب الأمر أن نضع محملاً يحمله بمشقّة عشرة أشخاص حتى الكلك، لكننا كنا نرى هذه القطعة في

أحد المتاحف. لقد فعلنا ذلك بدون تركيا، ومن دون سوء نية وإزدواجية الموظفين في بغداد.

ثمه بقايا الفناء من التل وحتى النهر، وفي أماكن كثيرة آثار طلاء شبيه بالقار، لكنه أشدّ صلابة، فهل كان ذلك سداً، أم إنه حاجز، أم رصيف؟[١٥٥]

نصف أهالي القرية يستعرضوننا راجلين أو ممتطين الجياد، ونحن نجتاز بعض بيوت الطين الوضيعة. أمام أحد البيوت، نجد رجلاً وإمرأته، مازالا شابيّن، جالسين أرضاً، الواحد آزاء الآخر، وأمامهما إناء خزفي مملوء بماء الصابون، الرجل عار حتى الحزام وقد أحنى رأسه في الإناء، والمرأة تغسل له شعره بكل عناية. الرجال هنا يتركون خصلات شعرهم، يشدّونها الى الوراء، أو يتركونها تتدلّى تحت عباءاتهم، ويصنع البعض لهم ضفيرتين يدعونهما تنزلان الى الأمام، تحت الحنك وعلى الإكتاف.

يغدو الوقت متأخراً حين نستأنف المسير. ولكي نرتاح من التعب، نستحمّ سباحة ونحن نتبع القارب، وندخنّ الغليون بعد العشاء. الليل هادىء، والنجوم متلألئة، ولا شيء يزعج هدوء الصحراء. نتوقّف في الساعة التاسعة.

السبت ١٧ تشرين الأول (أكتوبر)

لقد كان الليل بارداً أيضاً. إنخفضت درجة الحرارة حتى ٣ فوق الصفر في الساعة الرابعة صباحاً، ولا أظن بأن الرجال الراقدين خارج الخيمة قد أحسوا بالبرد.

نجتاز في الساعة الثامنة شلالاً علوّه خمسون سنتمتراً، لاشك إنه سدّ قديم متهدّم. من السهولة بمكان، بفضل بعض أقلام الديناميت، القيام بحفر قناة تسهل شأن هذا الممر الخطر، إلا أنهم حذرون من القيام بعمل مفيد كهذا. نضطر الى جمع كل الأمتعة وكل التجهيزات في الخيمة أثناء عبور هذا الممر. يجرفنا التيار، حتى نلقى أنفسنا في هذا المأزق، يميل الزورق مترنحّا، وبعث صوتاً شديداً، فيبدو وكأنّ كل شيء قد تكسرّ. فتنقلب الأمتعة، وتلمس إحدى زوايا القارب الأرض، فقد حصل الزيغان،

(١٥٥) مشاهدات بنديه في النمرود ذات فوائد. ويمكن للزائر أن يطلع اليوم على آثار هذه العاصمة الآشورية بعد قيام المؤسسة العامة للآثار والتراث بإجراء تنقيبات وأعمال صيانة.

لكننا نعبر هذا الحائل، وبدلاً من أن يظل القارب مستطيلاً، يغدو معيناً، وقد تمزّقت بعض الأربطة، وبعض القرب تشققت، وما نزال نعوم مع الموج حتى وصولنا أقرب ضفة، فيقضي أصحاب الكلك ساعة في إصلاح بعض الأضرار، بينما نتمشّى نحن أثناء ذلك على الساحل المرتفع.

نقضي النهار بلا عمل. وبالتدخين. ترجماننا الجديد يرضينا جداً. إنه لطيف، ومجامل، يتطلّع إلينا بسذاجة، بعيني كلب كبير. يعدّ لنا القليون بشكل ماهر بحيث يجنبّنا عناء إعداده. إنه نظيف وشديد الإهتمام.

نمرّ في الساعة العاشرة أمام مصبّ الزاب الكبير. مياهه الزرقاء النقية التي تصل من الجبال، تلوّن مياه دجلة الغبراء والصفراء قبل أن تختلط بها. يصبّ الزاب الكبير في دجلة من خلال رافدين، أحدهما في موسم الجفاف هذا من السنة.

الساعة الواحدة بعد الظهر، يؤشر المحرار درجة ٣١، فثمّة إذاً فرق ٢٧ درجة خلال تسع ساعات[١٥٦].

نمرّ من حين لآخر أمام قرى صغيرة يتطلّع أهاليها بفضول الى خيمتنا البيضاء وهي تعوم، وتنبح الكلاب. الضفة مستوية بحيث يضيع مدى البصر في الصحراء الرملية، وثمّة بضع تلول يصطدم بها التيار، فيرتد، حتى تسقط السواحل عمودياً في النهر.

نستمتع بمشهد عجيب في الساعة السادسة، هي لحظات مغيب الشمس، فالسماء ذات زرقة شفّافة، مذهبّة بفضل الشعاعات الأخيرة. وليس من ريح يعكّر الجو، والنهر عريض، ومهيب، يجري دون أقلّ تشنج، ولكي يعطي حياة لهذه اللوحة، تمرّ في البعيد قافلة جمال تقطع النهر على الأقدام. صراخ الجمّالين يثير الحيوانات، تستنفرها قليلاً. بعد عبور آخر جمل، يولد الصمت من جديد، وتختفي القافلة في الأفق بكل هدوء.

يوقظنا يوفان من إنخطافنا، يسألنا إذا ما كنا نودّ أن نتعشى. أية لذّة أن يخدمك خدم كهؤلاء. كأنك وحدك. والمسلم هو كامل المزايا، من هذه الناحية. جنود جذّافون،

(١٥٦) ملاحظة أخرى ذكية يسجلها بنديه. فالطقس في بلادنا متقلّب كثيراً، ودرجة الحرارة تصعد وتنخفض خلال ساعات قليلة بشكل غريب.

خدم، لاتسمع لهم صوتاً، ولا صراخاً، ولا ضحكاً. إنهم قابعون في أمكنتهم لايغادرونها البتة، طيلة النهار. يفكرّون، ويحلمون. الجنود يساعدون، من وقت لآخر، في المطبخ. كمسلمين حقيقيين، لايأكلون اللحوم التي لم يذبحوها بأنفسهم. ولكي ينعموا بما يفضل عنا، سألوني فضلاً كبيراً أن يكونوا ممن يعملون في الفناء الداخلي.

يخيّم الظلام في الساعة الثامنة، فنتوقّف قرب الساحل، ونعتكف في الخيمة. أقرأ بعض النشرات التي جلبتها من الموصل(١٥٧).

كنّا قد نمنا منذ ما يقارب الساعتين، وفي نحو الساعة الحادية عشرة، سمعت صوت جلبة وكلام، ودخل بطرس مثل مجنون، فقفزنا، أنا وهاملن، وأخذ كل منا بندقيّته الجاهزة وهلعنا الى الخارج. لقد كان ثمّة نحو خمسة عشر نفراً يصيحون، ويقومون بحركات وثلاثة أو أربعة منهم، سكاكينهم بين أسنانهم، يرمون بأنفسهم في الماء لكي يثقبوا القرب. أحد الجندرمة يقطع الحبل الذي يشدّنا الى الأرض، فلقد كنا مع الأسف قريبين جداً الى الساحل، إذ كان الكلك فوق الرمال، حتى ظننت إنه لم يمكننا النزول في الماء، غير إننا تمكّنا بعد جهد جهيد من الإبتعاد عن الساحل، فأخذ بعض القراصنة يعومون، إلا أن الجنود أطلقوا عليهم الرصاص، وأفرغت أنا جميع إطلاقات بندقيتي من نوع وينجستر(١٥٨).

لذعرهم من الإطلاقات، لجأ السابحون الى الضفة، وواصلنا نحن بهدوء، إنما بتحفظّ، إذ لاينبغي أن ننجرف الى عمق قليل، فالجماعة تتبعنا على الساحل. أحشو بندقيتي وأطلق بضع إطلاقات، ثم إذ لم أعد أرى بعد أحداً، أعطي الأوامر

(١٥٧) من جملة الكتب التي كنا نقرأها، كتاب بالإنكليزية. فإننا أثناء تجوالنا في ڤيينا، رأينا لدى مكتبيّ (دليل في تركيا الآسيوية، وأرمينية وفارس). لايشتمل هذا الدليل إلاّ على رحلات الرحالة الرئيسيين دون تقديم أي شرح مفيد، غير إن إحدى عباراته الأولى كانت: «ليس ثمّة مصنفّات حول الرحلات الى بلاد ما بين النهرين وكردستان، ولا شيء أفضل في هذا الصدد من (عودة العشرة آلاف) لكزينيفون، لذا أنصح القاريء بالرجوع إليها» (الرحالة). بشأن هذه الرحلة، أنظر: حملة العشرة آلاف، الحملة على فارس، للمؤرخ الأغريقي زينوفون، ترجمة يعقوب أفرام منصور، الموصل ١٩٨٥.

(١٥٨) من ماركة Winchester.

بالإنزال على الضفة المعاكسة. واحد من الجنود يقوم بالحراسة على اليبس، بحيث يتاح له الرصد من البعيد. أمّا البقية ويوفان معهم فيسهرون من جهة النهر، ولاسيما من الجهة العليا من المجرى، لأن هؤلاء الأشقياء قد تعوّدوا على السباحة بدون ضجّة، إذ إنهم يركبون قربة منفوخة ويدعون أنفسهم للتيّار فيجرفهم الماء. نعود الى خيمتنا، وما يلبث النعاس أن ينسينا هذا الخطر.

١٨ تشرين الأول (أكتوبر)

ننطلق في الساعة السادسة، لدى إنبلاج الصباح، إذ أنه على بعد مسافة قريبة توجد مناطق سريعة الجريان وصعبة ينبغي إجتيازها. بعد نحو نصف ساعة، نصل فعلا الى موضع ترتفع فيه صخور ضخمة تهددنا بأمواجها الشديدة ونحن وسط تيّار سريع.

حوالي الساعة العاشرة نمرّ قرب ضيعة أعراب. رجال ونساء عراة، ثيابهم على رؤوسهم وهم يعبرون النهر، ويمسكون قربة منفوخة بذراعهم لكي يستندوا إليها، وهم لايعومون إلا بأرجلهم.

نجتاز في الساعة الرابعة على مقربة من تلّ مرتفع على الضفة اليمنى. إنها هضبة قلعة الشرقاط، مدفونة فيها أطلال قصور آشورية، وأهمها الهضبة الكبرى المعروفة، مساحة أرضيتها أكثر من أربعة كيلومترات. إنه موقع أقدم مدن آشور، كشف فيها لايارد عن المنحوتات والطابوق، فوجد إسم ملك منحوت على ثيران المداخل الرئيسة للنمرود. يفترض أن تقوم كالح في موقع هذه الأطلال، وهي إحدى المدن القديمة الأربع المذكورة في التوراة (سفر التكوين)، بينما يزعم آخرون إن (أور)، مدينة إبراهيم، هي القائمة في هذا المكان(١٥٩).

ما هو ثابت، أن هذا الموضع هو موقع Caenes المدينة المندرسة، يذكر كزينيفون بأن العشرة آلاف يونانيا قد عبروا دجلة على مقربة منها، حين مات كورش قرب

(١٥٩) قلعة الشرقاط يكتبها بنديه Kalaat - Shergat وآثار الشرقاط هي بقايا مدينة (آشور) العاصمة المقدسة الأولى للآشوريين. تقع على بعد ١١٠ كم من الموصل قرب قضاء الشرقاط، ويرجع تأسيسها الى الملك آشور أبلط سنة ١٣٦٢ ق.م كشفت فيها الحفريات عن معابد وقصور وزقورة وأسوار، وهي ليست كالح ولا أور، كما يقول بنديه.

بابل، فعادوا الى بلادهم[١٦٠].

مجرى النهر هو الآن أكبر عرضاً مما في الموصل، فإن الروافد التي تقبّلها من الضفة اليسرى، والوافدة من جبال كُردستان، جعلته ينمو. عند المساء، نرى على الساحل الأيمن مجاميع غفيرة من الدرّاج، وبين الحين والآخر ينابيع كبريتية تنشر رائحتها التي لاتطاق، وكأنها بيض فاسد.

المساء جميل كالأمس. إنه أجمل أوقات النهار.

ساعة بعد العشاء نتوقّف على الساحل المعاكس لقرية صغيرة حيث زراعة البطيخ بحجم كبير. نسمع طيلة الليل إطلاقات نار ونباح الكلاب. إنهم الأهالي يطردون الخنازير، إذ أن هذه الحيوانات تتكاثر في هذه الأطراف، وتأتي ليلاً لكي تلحق أضراراً جسمية بالبطيخ.

١٩ تشرين الأول (أكتوبر)

إنه اليوم الرابع من ركوبنا في الماء. أحد الكلاكين مبتلى بمرض الربو الحاد، يسألني علاجاً ضدّ السعال، فلا يسعني إلا أن أنصحه بأن يغيّر مهنته، فإنه بهذا الوضع المزعج، يقضي نهاره كله في الماء، غائصاً أحياناً حتى نصف جسمه لكي ينفخ قربة ويملأها هواء، يسير لاريب الى القبر بأسرع مما يريد الله منه.

ثمة بعض حقول دخن وقنب على الساحل الأيمن. وسط هذه الحقول، وفي الشمس المرتفعة، صبيان مسلّحون بالمقاليع[١٦١]، يتسلقّون فوق حصيرة تحملها أربعة أوتاد، وذلك لإبعاد العصافير بتوجيه الحجارة إليها. ومن حين الى آخر نلقى عصافير غرقى تعد بالآلاف.

(١٦٠) لقد كانوا يبلغون أبعد من هذا الموقع، حتى أطراف Abou Shita فيعبرون النهر، ويصلون لاريسا (النمرود)، ومسبيلا (نينوى)، ويستريحون في تلكيف، ثم يعبرون الخابور قرب زاخو، حتى يبلغوا كردستان (بلد الكارنوك Carnuques – كذا والمقصود السر Carduques أي بالدال لا بالنون) ثم يواصلون طريقهم عبر الجبال، فيقطعون Teleboas أحد روافد الفرات، ثم يعبرون فاز، أي آراكس Phase, Arax ويتجهون شرقاً، ويجتازون هرباز Harpase ويعودون غرباً، حتى يصلوا طرابزون Trébizonde ويعودون الى بلادهم بمحاذاة الساحل (الرحالة).

(١٦١) مايزال (المقلاع) معروفاً حتى اليوم في الأطراف التي يذكره الرحالة فيها.

الساعة العاشرة نمر أمام مصبّ الزاب الصغير. وبعد الظهر يبدأ ظهور الذباب. إنه من نوع مزعج جداً. ودرجة الحراة في الظل ٣٥°.

نجتاز في الساعة الخامسة مقطعاً من جبل حمرين بشكل نصف دائرة، يمتدّ پشت كوه في لورستان الفارسية[١٦٢]. ونصادف ينابيع كبريتية أخرى تلوّث الهواء.

نقوم، بعد العشاء بعمل غرفة مظلمة، وذلك بوضع سريري المخيّم فوق بعضيهما، وإكسائهما بالأغطية التي نغطّي بها أنفسنا، وذلك لإستبدال الورق الحساس لأفلام التصوير، أغوص في هذا الحيّز الضيق وأسجن نفسي فيه مدة ربع ساعة، ومصباح زجاجي أحمر يزيد من درجة الحرارة.

نمرّ قرب مخيّم أعراب يشعلون نيراناً شديدة. الماء أقلّ عمقاً. نسمع في بعض الأمكنة صوت القرب وهي تصطك بالحصى. لقد كانت مائة وخمسين قربة ساعة السفر، ولم يبق منها أكثر من مائة لدى الوصول.

نتوقّف الساعة الثامنة والنصف قرب ضفة عالية نوعاً ما، مغطّاة بالعوسج. فيها آثار ثعالب وخنازير وحيّات كثيرة. الرجال الذين يفضلّون البقاء على اليابسة، يضرمون ناراً كبيرة. أسهر لكي يكون دوماً مَن يحرس القارب، مصوّباً نظره جهة النهر، كما الى الساحل، ومحترزا من الريف.

٢٠ تشرين الأول (أكتوبر)

لا شيء مثير اليوم.

نلاحظ صباحاً آلاف العصافير وهي تهاجر أفواجاً.

نصادف الساعة الحادية عشرة آثار فشل زورق بخاري إنگليزي حاول أن يصعد دجلة بتهوّر، دون أن يقوم بالمجسّات المطلوبة. إنها ضفاف مستوية ورتيبة.

نصل تكريت في الساعة العاشرة مساء.

٢١ تشرين الأول (أكتوبر)

يتطلّعون الى تكريت كما الى واحة، مع إنه ليس فيها سوى أربعة أشجار نخيل.

(١٦٢) هكذا وردت هذه الأسماء في الرحلة: Djebel - Hamrin, Ponschti, Kou, Louristan

تكريت

البارحة مساء، لدى وصولنا، كان القمر ينير إحدى أشجار النخيل هذه الواقعة وسط ساحة صغيرة محاطة ببيوت منخفضة، بإتجاه النهر. إن التطلّع إليها في هذا الصباح يعطيها جمالية أقلّ من يوم أمس.

أول همّنا تجديد تجهيزاتنا. نشتري بعض الدجاج وخروفاً يتعهّد الشرطة بذبحه وإعداده، بينما نقوم نحن بجولة في المدينة. يكلّفنا الخروف سبعة وعشرين قرشاً (خمسة فرنكات و ٤٠). نترك للشرطة الإنتفاع بجلده، وقد كنّا نستطيع بيعه بخمسة قروش (فرنك واحد). لقد دفعنا أكثر مما يدفع أهالي البلد، فلقد كان للطباخ عمولة في الأمر[١٦٣].

إن الأمير صلاح الدين مولود في تكريت. شهرته المعروفة في الحملة الصليبية الثالثة وحملاته على المسيحيين، فقد حارب بشهامة ومهارة، فقهر ريشارد قلب الأسد[١٦٤].

(١٦٣) شكوك، ظنون وإدعاءات، أم حرص شديد ودّقة ملاحظة كبيرة؟

(١٦٤) البطل صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨- ١١٩١م)، مؤسس الدولة الأيوبية. هزم الفرنجة في معركة حطين سنة ١١٨٧ وفتح بيت المقدس. كانت ولادته في تكريت. الأسماء الواردة هنا يكتبها بنديه هكذا: Tekrit, Salah-ed-dine = Saladin.

قلعة تكريت

القلعة أطلال، وتقع في جهة المدينة العتيقة، وترجع الى عهد تيمورلنك، وقد مني سابور بالفشل أمام أسوارها. إنما المدينة بعيدة اليوم عن مجدها الغابر.

في الساحة التي حططنا الرحال أمامها، تقوم ساحة رملية كأنها ساحل رملي. قد بسط فيها باعة البطيخ والرقّي سلعهم، وهم ينتظرون المشترين بفارغ الصبر. وفي الطرف الآخر، قصّابون قد ذبحوا خروفاً، وعلقّوا الحيوان من إحدى رجليه، وراحوا يقطعون للمارة القطعة التي يريدونها.

تضمّ المدينة نحو ألفي بيت، دون إحتساب الأخربة الكثيرة التي تمتدّ الى الوراء، وكأنها ضاحية مهملة أو متهدّمة. ويرتفع الى الجنوب، تلّ مستقيم الشكل، على بعد مائتي متر في الطرف السفلي من المجرى حيث توقفنا. أما شمالاً، فالساحل أقل علواً. والمدينة أشبه بمسرح وسط هذين المرتفعين.

نجتاز طرقات تكريت الصغيرة والمملوءة أتربة بيضاء هي بقايا جدران البيوت المصنوعة من الوحل الجافّ الذي ينحلّ في الشمس. وإذ نبلغ نهاية المدينة الحالية، نهيمن على كل إمتداد المدينة القديمة، حيث تبدو الجديدة خارجة عنها وكأنها حيّة تترك جلدها متخلصّة منه.

نمرّ أمام القلعة، ونحن ننعطف الى الجنوب قليلاً. لم تعد سوى كومة مشوهة لأنقاض أسوار مشيدّة بسمنت الحصى الخشن. وتقوم المقابر على مبعدة من الأطلال.

نميّز وسطها مسجدين أو ثلاثة في الأفق، ومراقد باشوات أو أثرياء المسلمين. وفي الجهة الشمالية آثار باب ذي مساند ضخمة مشيّدة بالحصى والسمنت، نصفها متهدّم، كأنه مدخل قلعة أخرى كانت تسيطر على المرتفع. لايحمل هذا الباب أي أثر منقوش.

عرب في تكريت

إذ نسير بمحاذاة الساحل، نعود قافلين الى الكلك، فنمخر.

دجلة عريض، وضفافه منخفضة، بحيث إننا نشاهد من جميع الأطراف أقصى ما يمكن من مدى النظر. الشمس محرقة. والذباب لايحتمل. تصعد درجة الحرارة حتى ٣٨.

فنقوم بإستراحة الظهيرة. حتى نمرّ في الساعة الثالثة أمام الإمام – الدور[١٦٥].

إنه قبر مربع الشكل يرتفع على علو خمسمائة متر عن الساحل، قبّته من الطراز العربي، جميلة جداً.

منظر عادي في المغيب. إنه الهدوء المعهود، يريح النفس والجسد. النهر أشدّ عرضاً، ومجراه أكثر تماثلاً وهدوءً، بحيث ينسجم بنوع أكبر مع السهول الفسيحة التي تحيط به.

نتوقّف في الساعة الثامنة مساء قرب مخيّم صغير لأعراب مزارعين، ومع إنهم يبدون غير مغرضين، فإننا نخيّم على الساحل المعاكس. يأتينا إثنان أو ثلاثة منهم حاملين الرقّي والحليب. إنهم يحملونه على الرأس أثناء عبورهم النهر سباحة[١٦٦].

٢٢ تشرين الأول (أكتوبر)

نمرّ صباحاً أمام سامراء وجامعها الشهير. لقد كانت سامراء أيام الخلفاء مدينة

(١٦٥) إنها (الدور)، يكتبها بنديه هكذا: Imam - Dour.

(١٦٦) وتكذب ظنون بنديه، فالأهالي أناس طيبون، يقدمون له ولأتباعه الرقّي والحليب، وربما اللبن، أما القراصنة وقطاع الطرق فأنفار معدودون لايحق تعميم ظاهرتهم على القبائل والسكان جميعاً.

كبيرة ومزدهرة، بل كانت المقرّ المفضل للخليفة الثامن المعتصم بالله الذي دفعته طباع أهالي بغداد القلقة الى تغيير مركز الحكم. لكنها ليست الآن سوى ضاحية ذات شأن صغير[١٦٧].

لقد شيّدوا برج سامراء (الملوية) كما كان لهم أن يتخيّلوا برج بابل، أي بدرب دائري يتصاعد حلزونياً حول المركز. أما الجامع فمكان زيارة للشيعة، إذ دفن فيه آخر إمام من سلالة علي (رض)، وفيه يتوارى الإمام الثاني عشر، المهدي الذي سيظهر يوماً كالمسيح.

نلتقي الساعة الثامنة بقافلة فرس يعبرون النهر.

بعض البيوت التي على الساحل هي منازل نوتية حطوا في هذا المكان حيث النهر يشقّ الطريق، وذلك لكي ينقلوا المسافرين. زوارقهم غريبة الشكل. إنها أعشاش كبيرة، دائرية الشكل، مصنوعة من خيزران محبوك، ومكسوة بالقار، يسمونها (القفة)[١٦٨]. إنه النموذج المستخدم في المنطقة كلها. إذ يبدو بأن فنّ الملاحة لم يتقدّم منذ العهد الآشوري. فقد وجدت ألواح جدارية في خرائب النمرود ونينوى تمثل هذه الزوارق ذاتها، يسيّرها المجذاف نفسه الذي مازال يقودها في التيّار، والى جانب هذه الزوارق نحتت رسوم رجال ممتطين قرباً منفوخة، كما بوسعنا أن نشاهد الآن أيضاً في كل لحظة. والأمتعة مكوّمة كيفما كان، كمخيّم البوهيميين، مع النساء والأطفال. بعضهم ينزلون الجياد الى الزورق، وآخرون يدفعون بها سباحة، وبعض النساء قد تخلّفن عن الركب، فهن يقمن بعملية التغسيل في النهر، بل إن إحداهن تعوم، بينما تخفي الأخريات بملاءاتهن العائمة عن أعين العامة.

بعض أشجار النخيل تضفي على الضفاف منظراً جديداً. وترتفع الحرارة الى درجة ٣٩ الذباب لا عدّ له، ومساء يستبدل بفراشات صغيرة شبيهة بعثّة الثياب. البعوض نادر، فهو لم يلسعنا.

(١٦٧) Samarra سامراء، أو (سُرَّ مَن رأى)، أسسها العباسيون. ومن آثارها الشهيرة الملوية والجامع الكبير وبعض القصور.

(١٦٨) يكتبها Kouffeh وأنظر رسمها.

القفة - بغداد

نلمح في الساعة الحادية عشرة تلّ محاسي[١٦٩]،

الجامع الكبير المربع الشكل، والخان الفسيح الذي يهيمن على السهل بمهابة. نظراً لوقوعه في منعطف النهر، نشاهده مدة تقرب من ثلاثة أرباع الساعة، فإننا ندور حوله.

بتأرجح الكلك، ويتفكك قليلاً فقليلاً. فقد تكسرّت أحزمة الخيزران في عدة مواضع، وتشققت بعض القرب، وإنعدم هواؤها، فبات من الصعوبة بمكان أن نسير بدون رجّات، فهو يصطدم بإستمرار بالحصى والصخور. لقد آذاه كثيراً شلال اليوم الثاني، وسيكون غير صالح للإستعمال في نهاية الرحلة.

تصبح رائحة لحم الخروف كريهة، فأوعز بأن يرمى بقسم منه على مرأى من الرجال الآسفين عليه، فإن حاسة الشمّ لديهم أضعف مما لدينا، لذا لم يعيروا أهمية للرائحة الكريهة المنبعثة منه.

نمرّ عند مغيب الشمس على مقربة من خيم بدو. الأطفال عراة يتجوّلون وسط الدجاج والحمير والثيران، بينما تقوم النساء أمام أكواخ الأغصان بأعداد طعام المساء، بزر القنب والحليب الساخن، والرجال جالسون القرفصاء يتأملونهن بصمت.

(١٦٩) Tel - Mahassi

القفة في لوح قديم

لن نتوقف هذا المساء، بل سننجرف طيلة الليل مع مجرى المياه.

٢٣ تشرين الأول (أكتوبر)

ثامن يوم من الملاحة.

يغدو التيّار أبطأ، رويداً رويداً، فنسير ببطء شبيه بإنعدام الحركة. لم نبلغ سنديا[١٧٠] إلا في الساعة الرابعة صباحاً، بينما كنا نأمل أن نصلها البارحة. نرى بساتين نخيل ذات شأن كبير في الحويش[١٧١]، في الساعة الثالثة. ونشاهد في الساعة الخامسة قرية جديدة الصغيرة[١٧٢].

خنزيرات خشب بدائية منصوبة من كل جانب من النهر لرفع المياه في القرب. الطريقة بدائية تماماً. فإن ثيراناً يقودها طفل تسحب القرب التي تمتلىء من النهر لكي تصبّ ماءها في ساقية حتى تبلغ الضفة، وهناك تجري في ألف ساقية لإرواء الحقول. الصرير المستديم لعجلات الخشب لايطاق، وسوف يلازمنا هذا الصخب بشكل متصاعد حتى بغداد.

(١٧٠) Sindia

(١٧١) Howeish

(١٧٢) Djedeida

دجلة بين بغداد والكاظمية

٢٤ تشرين الأول (أكتوبر)

سوف نصل بغداد اليوم. نحن في الكاظمية (الكاظمين)[١٧٣] في الساعة السادسة، إنها ضاحية على بعد بضعة كيلومترات من بغداد، شهيرة بمزارها الشيعي. ثمّة نوتية يتعمّدون الإحتكاك بقاربنا وهم يمرّون بقربهم، حتى أن أحد صناديقنا يوشك أن يسقط في النهر، ويبدو أنهم مرتاحون جداً إذ يتمكنون من السخرية بنا. لقد كانت البندقية بيدي، لذا صوبّت إطلاقتين الى زورقهم، تحت خط التجذيف بقليل.

نصل جسر القوارب، قرب الكاظمية، ساعة فتحه تماماً. جذوع نخيل تملأ حافات النهر الذي قد أصبح عريضاً ومهيباً جداً. الموضع جميل جداً. نرزم أمتعتنا المتناثرة، ونترك بزّتنا غير المنتظمة لكي نرتدي أفضل منها.

ينحرف النهر، حتى تبدو بغداد أخيراً. من كل ناحية من دجلة ترتفع قصور منيفة تستحمّ أسوارها العالية المشيدة بالطابوق في مياه النهر. يكثر النخيل ما بين

(١٧٣) الكاظم أو الكاظمين، يكتبها رحالتنا بعدة أشكال: Kadhimein, Kasméne, Kazhmein. والكاظمية من ضواحي بغداد، على إسم الأمام موسى الكاظم من سلالة الرسول من إبنته فاطمة.

السطوح، وتنتصب أشجاره فوق المياه بحيث تهمين على البيوت بأغصانها الخضراء. والمدينة في البعيد، كتلة ضخمة لآلاف البيوت. وفي البعيد البعيد بعض القباب الجميلة، وأحد المعالم الخالدة، وبرج، أو منارة مكسوّة بالخزف القاشاني ذي الألوان الجذابّة، ترتفع فوق حدائق المدينة، وتتصل أشكالها الرفيعة بزرقة السماء. شمس بهيّة تضفي على المشهد ضياء منعشاً بحيث تبدو المدينة ساحرة. والصحراء المحيطة بها تعكس الضياء، فتلّفها بهالة، فتبدو وكأنّها معزولة عن العالم بأسره. هذه هي بغداد، مدينة ألف ليلة وليلة.

ينبغي النظر الى الشرق كلّه من خلال نظرة ضيقة. فالطبيعة وحدها هي المثالية هنا. إذ نقترب، نشاهد بأن تلك القصور ليست سوى خرائب قد زرعت وسطها أكواخ خشبية حقيرة. أما أطلال الأسوار التي قد سقط قسم منها في النهر فهي من الطابوق والسمنت، سميكة ومتينة، يقرب سمكها من المتر. في مدخل المدينة، نحاذي الضفة اليسرى على ساحل رملي.

بغداد*

من ٢٤ الى ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر)

الوصول الى القنصلية. فندق أوروبا. نانو نوري. الحنّاء. الأوروبيون في بغداد. الآباء الكرمليون. النواقيس والقرآن. برج بابل. بغداد. الضواحي. الأسوار. المراقد والجوامع الرئيسة. زيارة الى خشمين. التراموای. جامع الإمام موسى. تعصب الناس. عشاء لدى السيد أصفر. البريد عبر الصحراء. عرب شمر والحمويون. إرسال الرزم، ومصاعب ذلك. شاه فارس في زيارة الى بغداد. رفض الوالي إعطاءنا جندرمة. مجاميعنا تسرق. الرحيل عن بغداد.

تركنا الكلك بحراسة يوفان والجذافين والجنود، وتوجهنا صوب القنصلية. واحد من الجندرمة وبطرس يرافقاننا. الطريق طويل جداً. نقطع أولاً ساحة كبيرة مكشوفة للشمس، هي الميدان، محاطة بباعة لكل أصناف السلع. ثم نجتاز فناء معسكر المدفعية، وهي مزدانة بمدفع برونزي قديم كبير، ثم نتابع السير في أروقة السوق،

* الفصل العاشر من الرحلة.